

الدكتور
عبد الحلیم محمود

سُلطان العارفين
أبو يزيد البسطامي

٢٦١ هجرية

الطبعة الثانية

مقدمة

منه سبحانه نستمد الهداية، وإلى رحمته نلجأ ضارعين أن يدخلنا سبحانه
في عباده الصالحين، وأن يدخلنا برحمته مدخل صدق، وأن يخرجنا مخرج
صدق، وأن يجعل لنا من لدنه تعالى سلطاناً نصيراً، يا حي يا قيوم برحمتك
نستغيث، عسى أن تحيّر بها نقصنا وقصورنا، وبرحمتك نستغيث، عسى أن
تدرأ بها الأذى عنا، وبرحمتك نستغيث في وجه كل جبار أو ظالم أو شيطان
مريد، وبرحمتك نستغيث نرجو أن تنال بها من كل خير سألكه نبيك محمد
صلى الله عليه وسلم، وبرحمتك نستغيث من كل شر صرفته برحمتك عن
أوليائك وأصفيائك.

الحمد لله رب العالمين، اللهم لك الحمد حمداً طيباً طاهراً كثيراً مباركاً
فيه كما تحب ربنا وترضى، يا ربي لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم
سلطانك، سبحانه الله ومحمده، عدد خلقه، ورضاه نفسه، ووزنة عرشه،
ومداد كلماته، الحمد لله على كل حال.

وأشهد أن لا إله إلا الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له
كفوراً أحداً، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد،
وهو على كل شيء قدير.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً وكن بنا
الزمنين وموفقاً ورحيماً.

اللهم إنا نسألك بك أن تجعل وسلم على سيدنا محمد وعلى سائر
آلينا والرسولين وعلى آلم وصحبه أجمعين وأن تنفّر لنا ما مضى
نحفظنا فيما بقي.

اللهم صل على سيدنا محمد صلاة تنجيها بها من جميع الأحوال والآفات،
وتقضي لنا بها جميع الحاجات، وتظهرنا بها من جميع السيئات، وترفعنا بها
إلى أعلى الدرجات وتبلغنا بها أقصى النيات من جميع الخيرات في الحياة
وبعد السمات.

اللهم إني أتوجه إليك ببيك محمد صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة أن
ترحمي عما بي رحمة تغنيي بها عن رحمة من سواك.

يا سيدنا محمد إني أتوجه إلى ربك أن يرحمني عما بي رحمة تغنيي
بها عن رحمة من سواه... اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه ومن اتبع هدبه إلى يوم الدين؛ وبعد؛

فإن الحضارة الأوربية الحديثة قامت - في جانبها المادي - على أساس
من الملاحة والتجارة، وعلى المنيح الاستقرائي، وهو منتج تعدده المادة،
ويحدد نفسه بها.

وقامت الحضارة الحديثة في جانبها المعنوي على أساس من المثل

اللهم فاطم السمووات والأرض عالم النبي والشهادة الرحمن الرحيم
إني أعهد إليك هذه الحياة الدنيا أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت ومداد
في ريك لك، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم عبدك ورسولك فلا تكلم
من نفسي طريقة عين، أنك أن تكلمني إلى نفسي تقرني من الشر وتبعدني
من الخير، فإني لا أفتق إلا برحمتك فأجعل لي عندك عهداً توذبه إلى بر.

شهادة إنك لا تخلف الميعاد.

أشهد أن لا إله إلا أنت مالك الملك توفى الملك من تشاء وتنزع الملك
من تشاء وترزق من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء
قدير.

أشهد أن لا إله إلا الله يعلم خاتمة الأعين وما تخفي الصدور،
أشهد أن لا إله إلا الله يعلم السر وأخفى، أشهد أن لا إله إلا الله.

وأشهد أن لا إله إلا الله نستغفرك وتوب إليه؛ وهو التواب الرحيم،
وتدعوه؛ وهو البر الرحيم، ونستهديه؛ وهو المادي، ونستكفيه؛ وهو
السميع العليم، ونستغفرك؛ وهو العزيز الحكيم وارجوه سبحانه أن يعي لنا
من أمرنا رشداً.

وأصل وأسلم على خير الأنبياء والرسولين، اللهم صل على سيدنا محمد
وعلى آل سيدنا محمد. اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد.
عبدك عند خالقك ورضاء نفسك وربة عرشك ومداد كلماتك.

الذي يختلف باختلاف الأشخاص، ويتفاوت بسبب
سبب البيئة، والبيئة الخاصة، ومنها الوراثة، ومنها التيار الثقافي
مسند، من أخرى كثيرة.

أما ... روحى فإن الحضارة الحديثة لم تعره التفاتاً.
والروحى ... الله إلى البشر - إنما كان لتنظيم أمور الناس
الاجتماعية

إن الله ... حنفون وتعارضون ويتناقضون في كل ما يتصل بالمجتمع
من ناحية ... لإنسان بره، وصلته بأسرته، وصلته بمجتمعه، وغرائز
إنسان ... تنسم بالإفراط في حب الملكية وفي حب السيطرة
والاستعلاء ... مع عن ذلك التنازع الذى لا يستقيم معه أمن، ولا يتأتى في
نمو طمأنينة

ونزلت ... بياناً لعلاقات الفرد بالنسبة لغيره، فوضعت العقيدة:
«صلة الإنسان بالله»، ووضعت التشريع: صلة الإنسان بالمجتمع،
ووضعت الأخلاق: تزكية النفس وإخلاص العمل لله وحده.

أعرضت ... الحضارة الحديثة عن هذا الجانب، واندفعت في كشف قوانين
المادة للاستعلاء والغلبة، واندفعت في تشجيع الفرد على أن يجعل رأيه في
الجانب المعنى، يحل قوانين الله في المجتمع ... وشقيت الإنسانية شقاء
لا حد له من جراء الإعراض عن التوجيهات في شتى مجالات النواحي
الاجتماعية ... أو أخلاقاً، أو تشريعاً.

وكان لابد من أن ينشط المؤمنون الصادقون في طريق الدعوة إلى الله،
وأن يضاعفوا الجهد في هداية الإنسانية إلى الإيمان وما يتضمنه من فضائل
ما ينتج عنه من أمن للناس على دماهم وأموالهم، وأعراضهم.

وصور الدعوة إلى الإيمان تتنوع وتعدد، فمنها:
١ - الدعوة مثلاً عن طريق إيضاح موضوع الرسالة الذى يتنوع هو
الآخر وتعدد، فيكون بياناً للقرآن الكريم، أو شرحاً للأحاديث النبوية
الشريفة.

٢ - ومنها الدعوة عن طريق الكتابة في سيرة الرسول صلى الله عليه
وسلم، وهو - صلوات الله عليه وسلامه - المثل الكامل لتطبيق الرسالة
وأخراجها إلى الواقع كما أحب الله سبحانه وتعالى لها.
٣ - ومنها: الكتابة عن الشخصيات التى سارت في طريق الله تعالى
ملتزمة شريعته سبحانه.

ونحن - والحمد لله - قد كتبنا في كل هذه الموضوعات، متكاتفين في
ذلك مع هؤلاء الذين يسهرون على نفس الطريق أمثال العالم النقى الشيخ
أبو الحسن الندوى.

وهذا الكتاب حلقة في هذا السبيل.

إنه عن شخصية عظيمة، وكل الشخصيات العظيمة يختلف فيه
الناس، وتباينت آراؤهم.

بعد أردنا من هذا الحب بيان أمرين:

١ - شرح المثل الكريم: «نضائل النفيسة التي كانت شعار هذا الرجل العظيم، والتي استمدت من القرآن والسنة وإن في معرفتها هداية وإرشاداً لمن يتلمسون الطريق في صورة من صوره الصادقة ممثلاً في شخصية أحببنا الله حباً كبيراً عليها السمع والبصر والكيان كله. وكان هذا الحب نتيجة حب في سبيل الله متواصل في كل ميادين الجهاد!

الجهاد في العبادة، والجهاد بالسيف، والجهاد في المجتمع، والجهاد عن طريق القدوة.

وكانت ثمرة هذا الحب جهاداً مستمراً متواصلًا في جميع ميادين الجهاد أيضًا.

لقد كانت مقدمات الحب عند الجهاد، وكانت ثمرة الحب عنده الجهاد فهو صورة إسلامية إيجابية صادقة.

٢ - والأمر الثاني الذي كان من أهداف هذا الكتاب هو بيان الحقيقة عن هذه الشخصية في واقعها الصادق.

والله أسأل أن يهدي له. وأن يهدي يد. وأن يجعله في ميزان حسناتنا. إنه سميع قريب مجيب.

وصلّى الله على سيدنا محمد النبي الأمي، وعلى آله وصحبه، ومن اتبع هديه إلى يوم الدين.

عبد الحليم محمود

الفصل الأول

حياة أبي يزيد

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين. وبعد:

فإن أبا يزيد في حديث له عن فضل الله عليه وعنايته به سبحانه يختم الحديث بقوله:

«فالعناية من الأزل»

ونحب أن نبدأ الحديث عن عناية الله بأبي يزيد بالحديث عن والديه:

لقد كان أبوه رجلاً صالحاً يتحرى مرضاة الله في جميع شئونه، لقد كان الورع من صفاته البارزة فكان يتحرى الحلال في مطعمه وملبسه وشرايه ومسكنه.

وكان في قلبه وبين عينيه دائماً أحاديث جميلة من أحاديث رسول الله

عن أبيه وسلم في مجال الورع منها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه

«إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به
المسلمين، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الرِّسْلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.
وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾.

ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يد يديه إلى السماء يارب
يارب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذى بالحرام، فأنى
يستجاب لذلك» رواه مسلم والترمذي..

ومنها:

عن ابن عباس رضي الله عنها قال:

تليت هذه الآية عند رسول الله صلى الله عليه وسلم:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً﴾^(١).

فقام سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، ادع الله أن

(١) البقرة: ١٦٨

يجعلني مستجاب الدعوة، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم:

ياسعد، أظب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذي نفس محمد بيده
إن العبد ليقتذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه عمل أربعين يوماً،
وأما عبد نيت لحمه من سحت فالنار أولى به» رواه الطبراني في الصغير..

نشأ هذا الوالد على الورع، وشب على التقوى، وكيف حياته منذ
اليداية على قواعد الدين، وحينما أحب أن يتزوج كان الحديث الشريف
الذي وجه به رسول الله صلى الله عليه وسلم طلاب الزواج شعاره الذي
تشبع به، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«تنكح المرأة لأربع: لما لها ولحسبها ولجمالها ولدنياها، فاطفر بذات الدين
نربت يدك» رواه البخاري وغيره..

واختار فتاة يصفها المؤرخون حينما يتحدثون عن أبي يزيد فيقولون:
وكانت أمه في قيد الأحياء أما غريبت في النساء، مع الضياء والبهاء،
والستر والحياء، والتواضع والدعاء، والخوف والرجاء زاهدة عابدة، صائمة
قائمة، عفيفة شريفة، راضية مرضية.

ومع أنها - رضي الله عنها - كانت على هذه الصفة من التقوى فإن
المؤرخين يذكرون أن عيسى والد أبي يزيد رحمه الله لما تزوج بأمه وزفها لم
يباشرها ولامسها أربعين ليلة حتى علم أن لم يبق في جوفها أثر ما أكلته
من قبل، وتناولته فيها غير من الأيام التي كانت في بيت والداه، ثم لما
باشرها ظهر من أولاده مثل أبي يزيد رحمه الله.

ومما كتب هذه الأم ذات أثر كبير على أبي يزيد وهو يتحدث عنها
كثير في إحلال وإكبار شأن هؤلاء الصالحين الذين قرع أسماعهم وملا
قلوبهم قول الله تعالى:

﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً﴾^(١)

ولقد قتل هذا الإحسان في أبي يزيد: في قوله، وفي فعله بالنسبة
لوالديه..

إنه يتحدث عن مدى صلاح والدته، فيروي أنها كانت تتحرى الحلال
في مأكليها ومشربها، وقد أعانها الله على ذلك، فكانت إذا قدم لها طعام من
حلال امتدت يدها إليه، أما إذا قدم لها طعام فيه شبهة امتنعت يدها عن
تناوله، يقول أبو يزيد:

وكانت أُمِّي لما حملت بي إذا قدم لها طعام حلال امتدت يدها إليه، أو
حرام انقبضت..

ثم يختم بقوله: فالعناية من الأزل..

ولكن أبا يزيد نعيم الأمر في رواية أخرى، ويجعل هذه الظاهرة
ملازمة.. وهذه ظاهرة وجدها كثير من الصالحين عناية من الله بهم: لقد
وجدوا الجنيد رضي الله عنه، ووجدوا الحارث المحاسبي رضي الله عنه،

(١) الإسراء: ٢٣

وجدوا أبو العباس المرسى رضي الله عنه، ووجدوا آخرون كثيرون.
كان أبو يزيد باراً بأمه، وكان يحاسب نفسه على إخلاصها في بره بأمه،
ويروي في ذلك القصة التالية:

قال: كنت أظن في برى لأُمِّي أني لا أقوم لهوى نفسي، بل لتعظيم
الشرع حيث أمر ببرها، فكنت أجد في نفسي لذة عظيمة أتخيل أنها من
تعظيم الحق عندي لا من موافقة نفسي، فقالت لي في ليلة باردة: استقي،
فتنقل على وقمت بمجاهدة، وجنتها يكون فوجدتها نامت، فوقفت به حتى
انتهت، فتناولتها وقد بقي في أذن الكوز قطعة من جلد أصبى لشدة البرد
القرضت، فرجعت إلى نفسي فقلت لها: حبط عملك لكونك كنت تدعين
النشاط في عبادتك، ورأيتك تناقلت عن ذلك، فعلمت أن كل ما نشطت
فيه من عمل البر وفعله لا عن كسل وتناقل، بل لذة، فإنما هو هواك
لا لله..

وأخلص أبو يزيد في بره بأمه، ولعل فيوضات الله على أبي يزيد يرجع
الكثير من عوامليها لبره بأمه، فإن الجنة جنة الدنيا، وجنة الآخرة، وجنة
المعرفة، وجنة السعادة تحت أقدام الأمهات ونرجو أن يتأمل كل إنسان
الآيات الكريمة التالية من سورة الأحقاف:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا،
وَحَمَلُهُ وَفَصَالَهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا، حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ
أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ، وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا،

برضاء وأصلح لي في تربيته إني تبت إليك وإني من المسلمين. أولئك الذين
سئل عنهم أحسن ما عملوا وتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة. وعد
الصدق الذي كانوا يوعدون والذي قال لوالديه إني لكما أتعداتي أن
أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد
الله حق. فيقول ما هذا إلا أسطير الأولين. أولئك الذين حق عليهم
القول في أسم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين..
ولكل درجات بما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون^(١).

وإن من الأحاديث النفيسة حديث الاستشفاع الذي يذكر ألواناً
يستشفع بها إلى الله في أوقات الكرب، ومنها ما يقوله الرسول صلى الله عليه
وسلم فيها رواء البخاري وغيره: «بيننا ثلاثة نفر ممن كان قبلكم يمضون إذا
أصابهم مطر فأووا إلى غار فانطبق عليهم، فقال بعضهم لبعض: إنه والله
يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصلوة فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق
فيه... فقال الآخر:

اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران فكنت أتيتها كل
ليلة ابن غنم لي فأبطلت عليها ليلة، فنجت وقد رقدا وأهل وعيالي
يتضاغون من الجوع، وكنت لا أسقيهم حتى يشرب أبواي، فكرهت أن
أوقظهما وكرهت أن أدعها فمستكناً لشربتهما، فلم أزل أنتظر حتى طلع

(١) الأحقاف: ١٥-١٩

الفجر، فإن كنت تعلم إني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا، فانسأحت
عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السماء».

ومع كل ما بلغت هذه السيدة الفاضلة من التقوى فإن الكمال لله وحده.
وقد هفت والدة أبي يزيد هفتين:

يقول محمد بن علي الواعظ: وفيها أفادني بعض شيوخ الصوفية حاكياً
عن الجنيد بن محمد أنه قال: حكى لي أبو موسى عيسى بن آدم البسطامي
- ابن أخ أبي يزيد طيفور بن عيسى البسطامي بالفارسية فترجمتها
بالعربية، قال أبو موسى:

كان بدء أبي يزيد وتوحيته من رحم أمه وقلب أبيه، كان صبياً ابن أقل
من عشرة، إذ نبهه الله تعالى لأمره، وألهمه حكمة العمل فائدة من عنده
من غير تعليم، فقال أياماً لوالدته:

يا والدتي، أقسم عليك هل تناولت شيئاً من الحرام بسببي أيام كنت
ترضعيني، فإني لا آمن أن يكون قد وصل إلى شيء من قلبي وأنا لا أعلم
فيحجبني ذلك عن ربي..

فقالت أمه: لا أذكر إلا إني دخلت يوماً إلى بعض جيراننا وأنت في
حجري، فأخذت قارورة دهنهم فدهنت رأسك ولم أعلمهم، و يوماً آخر
كحللتك بكحلهم ولم أستأذنيهم..

فقال له أبو زيد: إن الله يحاسب عياده على مثقال ذرة، ثم قال: ألا

ترى إلى قوله عز وجل: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ومن يعمل
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ^(١).. وهذا أعظم من ذرة، فأخشى أن يقطعني عن ربي.
ثم قام وسأل عن القوم وطلب ورثتهم، فاستعمل منهم لنفسه ولأمه.
ولا يل أبو يزيد الحديث عن أمه، إنه يذكر شأنه معها في المخالفة كما
يذكر شأنه معها في الطاعة، إنه يقول:

خالفت أمي مرتين، فأصابني المضرة كل مرة: مرة لي بأن ألقى الشيع
من السطح إلى أسفل الدار فكنت أرميها، فقالت: أمسك فقدمت غرمت
قطعة منها، فأردت أن أدركها طاعة لها. وامتنالا لأمرها، فسقطت من
السطح وانقرح أنفي، فكنت أرى ذلك القرع من خلفي لها، وتركى
أمرها. ومرة أمرتني بالاستسقاء وقالت: احمل جرة، فحملت جرتين، فلما
برزت جاء سكران وضربني وكسر جرتي. فرأيت ذلك من خلفي أمرها.

وتروى هذه القصة أيضا بالصورة الثالثة، والصورتان يكمل بعضهما
بعضاً: يروى المؤرخون أن أم أبي يزيد قالت له ليلة من الليالي: اسقني،
فخرج في طلب الماء ليستقيها، فلما رجع رآها نائمة، فأمسك الكوز في يده
حتى انتهت، فلما انتهت قالت: يا أبا يزيد، أين الماء؟ قال: ها هي
فأخذت الكوز من يده وقد علقه من إصبعه فجمد عليه من شدة البرد،
فبقى بعض جلد الإصبع على عروة الكوز، فلما رأت ذلك وسألته عنه

(١) الزلزلة: ٧، ٨

أخبرها بذلك، وقال: هو جلد إصبعي «قلت في نفسي: إن وضعت الكوز
وغت فلعنك تريدن الماء فلم تزيد، وما أمرتني بوضعه، فأمسكته ابتغاء
مرضاتك والقيام بأمرك، فقالت له: رضى الله عنك..

فلما إن أبا يزيد كان لأمه عليه أثر فعال، ومن ذلك أنها رأت اضطرابه
وانزعاجه يوماً ما، فقالت له: اسكن، فسكن عما كان فيه..

وقال رحمه الله: سكتني إشارتها، وسددتني عن الاغتراب، وسكت
وسكن عن ذلك الاضطراب..

ويذكر أبو يزيد فضل أمه عليه، لقد قيل له مرة: هم بلغت ما بلغت؟
قال: أنتم تقولون ماتقولون، وإنا أرى ذلك من رضا الأم.. وفي جو
الصلاح والتقوى هذا نشأ أبو يزيد..

أما عن حياة أبي يزيد في بواكيرها الأولى فإننا لا نكاد نعلم عنها شيئاً،
ولكن فطاته ونباهته وعبادته كانت واضحة للجميع، وقد رأى شقيق
البلخي ذلك بينا حينما مر ببسطام.

مروى المؤرخون أن شقيقاً البلخي اجتاز ببسطام حاجباً، ففتقد المجلس
في مسجد من مساجدها في محلة يقال لها كدغان، وكان ذلك المسجد في تلك
الأيام جامعاً، فالصبية يلعبون على بابه وأبو يزيد فيهم، فكان يجيء باب
المسجد ويسمع كلامه وينصرف ويضعلك، فوقع عليه بصر شقيق، فقال
فراصة: سيكون هذا الصبي رجلاً من الرجال، فصار كما قال.

ومن منته نجاته في طفولته ما رواه موسى بن عيسى البسطامي قال:
سمعت أبي يقول:

قال رجل من أهل الحديث لأبي يزيد، وأبو يزيد رضى الله عنه صلى:
يا غلام، يحسن أن تصلي؟

فقال: نعم، إن شاء الله.

فقال له: كيف تصلي؟

قال: أكبر بالتلبية، وأقرأ بالترنيل، وأركع بالتعظيم، وأسجد بالتواضع،
أسلم بالتودع..

فقال: يا غلام، إذا كان لك هذا الفهم والفضل والمعرفة فلم تدع
الناس يتمسحون بك؟

قال أبو يزيد: ليس بي يتمسحون، لكن يتمسحون بحلية حلانيها ربي،
فكيف أمنعهم من ذلك، وذلك لغيري..

ومع كل ما يلفه أبو يزيد من الاستغراق في الألوهية فإنه لم يسر في
حياته مرة الرحيل، ولكنه كان يعيش فيها على سنتن رسول الله صلى الله
عليه وسلم، وكان يتمثل له قوله رسول الله صلى الله عليه وسلم:
«حبيب إلى من دنياكم: النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة».

والحديث الشريف يعني أنه صلى الله عليه وسلم يؤثر الصلاة إشاراً بلغ

درجة أن يكون قرة العين.

والحديث الشريف يعني أيضاً: أنه مهما بلغت منزلة النساء والطيب فإن
الصلاة هي اللذة والسعادة.

ويتمهي معنى الحديث إلى إشار الآخرة بمثلة في الصلاة على الدنيا بمثلة
في النساء والطيب.

والمعنى في النهاية أيضاً هو ما ترشد إليه الآية القرآنية الكريمة:
﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾^(١) أي
أن الابتغاء والهدى مما منح الله: إنما هو الآخرة، أما الدنيا فإنها عند طلاب
الآخرة في عالم النسيان، فيذكروهم الله سبحانه يأخذ نصيبهم منها حق
لا يضعفوا عن القيام بحقوقه، وعن أداء واجباته في أنفسهم، وفي مجتمعهم.
والآية الكريمة ترشد في جوها إلى الأخذ من الدنيا بالضروري منها.
وهذا هو معنى الآية الشريفة، وهو معنى الحديث الشريف والله سبحانه
حين قال:

﴿وابتغ فما آتاك الله الدار الآخرة﴾.

أطلق الأمر إطلاقاً، ثم استثنى منه قدرًا ضئيلاً:

﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾.

(١) سورة القصص: آية ٧٧.

مرحوم بن سحر هلاك لخلق في شينين

رث حرمة، وسيد الله

و يرى معيًّا به. وكان لهذا البيت شهرة خاصة بين أقبائه
— حين. وكان هذا البيت يسمى بيت الأسرار. يقول بعض أقبائه
مرئوما لا يسكتونه احترامًا واحتشامًا، ولكن يترددون إليه في
الصلاة فيصلون فيه.

في الدار التي كان فيها البيت الذي وقع ولادته فيه رجل من
كان يقال له: معلم زريكون، فعكوا عنه أن أعرابيا نزل عليه في
البيت فقال له:

يا سريت شيئا محرما فلا تدحه، فإنه بيت الأبرار وموضع الأحبار
شيئا لا يطعمه.

ال. فمن قضاء الله تعالى أنه رجع إليه ليلة سكران يبات فيه، فلما
... أي نفسه عريانًا، وما كان عليه من الثياب، وما في البيت من
... ثلها محرمة، فلما أصبح نادى الملم ودعا بإزاره، وأمر بما
... نائب، وانتقل من تلك الدار إلى غيرها خوفاً مما أصابه من العذاب
ورأى من الآيات والكرامات، وكان أبو يزيد يحب الإقامة ببلده
وما كان يحب السفر. اللهم إلا إلى الحج، ومن طرف ما يروى
... ما يرويه وهو، قال:

قال لي رجل: مالك لا تسافر؟

قل. لأن صاحبي لا يسافر، وأنا معه مقيم.

فعارضه السائل بمثل فقال:

إن الماء القائم قد كره الوضوء منه!

فقال: لم يروا ماء البحر بأشأ، هو الطهور ماؤه، الحل ميتته ثم قال: قد
مرى الأنهار تجري لها دوى وحرير، حتى إذا دنت من البحر وامتزجت به
سكن خيرها وجدتها ولم يحس بها ماء البحر. ولا ظهر فيه ريادة، ولا إن
خرجت منه سنبان نقصه.

ولم يفهم أبو يزيد أمر الرهد فهت مترمًا، إنه لم يلبس الخشن ويأكل
لحشن. ومن طريق ما يروى في ذلك ما ذكره أبو عبد الله الدستاني
قال:

إن أبا يزيد أمر بعض تلامذته أن يشتري له الخبز فاشترى، فلما رآه
وحده محاشيًا فأمره برده على صاحبه وقال: كأهم يقوون إهم مقربون
يأكلون كريمة يكون، وأمره أن يأخذ الأخود والأصص

وسار أبو يزيد في حياته على نسق سوي. وكان كل همة أن يصل إلى
المعرفة عن طريق القرب من الله، فلما وصل إليها تكلم بها ولقت بسلطان
العارفين، ولكنه حبس تكلم في علوم الحقائق كان الوسط الذي يعش منه
أقل مستوى من أن يفهم كلامه، فقال أبو يزيد:

يوم مآل كبير الصالحين في كل وقت من أدنى السعفاء. والله سبحانه
 عور. من أنبيائه وهم أصفى الناس لله:
 «ذلك حملنا لكل نبي عدوا من المجرمين»^(١١)

أعداء الأولياء:

قال أبو يزيد: ما من عبد اضطبعه الله لنفسه، وشغله بذكره وحمده عن
 محاسبته، وجعل له محادثة بقلبه، إلا سلط عليه فرعون على كل من ذلك
 يتكره ويؤديه.

يعول مؤرخو أبي يزيد:

«ولما تكلم في علوم الحقائق لم يفهم أهل عصره كلامه فرموه بالعظام،
 وبعوه من بلدهم سبع مرات، وهم في كل مرة يحتل أمرهم ويرل لهم البلاء
 حتى دُعوا له وأجمعوا على تعذيبه، ولكن هذه المحنة ما كانت تعزع أهل
 الله ولا تروعههم، ومن طرف شعورهم في مواجهتها ما ذكره الشيخ
 أبو عبد الله يقول

«سعى عن تلك المحلة فانتقل إلى محلة «وافدان» ولا يهولك عن حكايته
 ذلك. وأنه لم يصبه الأولياء. وبلاء الأصفياء أقل شيء يذكر ولا يكره.
 ولم يمت ذلك في عهد أبي يزيد، بل استمر في حياته داعياً إلى الله بقوله
 وحاله وسلوكه.

(١١) القرآن. ٣٦

وكتب دعوته إلى الله بخاله مصلر الجاذبية الكبرى في - بره
 . لا يجد إلى الله عن طريق العودة إليه، وكان كذلك هو - القدر
 بحسره

سول مؤرخون لحياته.

لما كان في الليلة التي ودع فيها روحه حصر المؤ - وسنه مع بخرح
 من الباب فلم يجب - إلى أربع مرات - فصاح به ردف - يريد؟
 من - ولم يكن قط يسميه باسمه احتراماً له واحسبوا سوء - يدك الليلة.
 من تمنى أنه غير بارر علم أنه إنما تمتنع عن الخروج بسبب - ففتح الباب
 فوجده خارجاً عن الدنيا ويقولون:

«لم يكن لأحد علم بوفاة أبي يزيد إلا أنه كان في - من تلاميذه -
 واحد يعد له. عبد الله بونابادي (رستاقوي) قرنه بفر - ليلة - جاء
 برأيه أن يصرف إلى فريته فاستأذن عن الخروج - ولم له لا غش
 حتى صلى الحسرة. ولم يكن يعلم الرجل ما تلك بحار - أنه علم صدق
 قوله مع يستحيره عمنها. حرمة، فلما أصبح كانت المأزاة جنازة نفس
 في يريد رضى الله عنه

ويقولون

مات سنة إحدى وستين ومائتين عن ثلاث وسبعين سنة. وقد أفردت
 ترجمته بتصانيف حافلة.

الفصل الثاني

أبو يزيد والعلم

كيف سارت به الحياة الروحية؟

إتنا في هذا سنتبع خطاً رسمه أبو يزيد لحياته الروحية في سيرها إلى الله، حتى وصلت إلى الوسيلة التي توصل إلى الله تعالى في صورة ميسرة، وبإدراك خط سيره الروحي قد رسمه هو فإنه من الطبيعي أن نلزمه وأن نقف عند كل مرحلة منه ونفقه قد تكون طويلة وقد تكون قصيرة، وذلك بحسب ما لدينا من نصوص عن كل مرحلة.

وبدأ أبو يزيد - في سيره إلى الله - بالعلم، يقول أبو يحيى العربي البسطامي:

«كان مشايخ ناحية بسطام من أصحاب أبي يزيد يحدثون عنه أنه كان يقول:

«كان ابتداء أمري أن أقامني الحق تعالى على أبواب العلماء، وصحبة

المسمى دهرًا طويلا، فلما استكثرت من أنواع العلوم جعلت نفسى تجدثني
أنك قد عرفت وعرفت، والعالم والعارف في أعلى المراتب، فأسرف في الحق
معاى حتى رأيت ازدهام العلماء والعارفين، فلم أر لنفسى معهم موضع قدم،
متلاشيت وانصرفت ولم أصل إلى الحق. فقلت: العلم والمعرفة من غير
حقيقة حجة، وكان عدى أن الحقيقة في العلم والاجتهاد

العلم في الجو الإسلامى:

لقد بدأ الوحي، بدأ الجو الإسلامى كله، «بقراءة» أى بدأ بالعلم.
والعلم له منزلة الكبرى في الإسلام، منزلة لا يوجد ما يماثلها أو يضارعها
في الآداب العالمية، سواء كانت شرقية أو غربية أو يوربية أو أمريكية..
لا يوجد بالنسبة للعلم إشادة به كما يوجد في الإسلام.

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«من سلك طريقاً يتقى فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة، وإن
المرتبة لتصح أحسنها بطالب العلم رصاً لما يصنع، وإن العالم يستغفر له
من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على
السيّد لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ
وافر»

العلماء ورثة الأنبياء، ولن نجد مطلقاً في المجتمعات مهما اختلفت طائفة

من الناس تسمو على ورثة الأنبياء وعلى خلفاء الأنبياء.

إن العلماء في مجالات العلم المختلفة: في طبقات الأرض، في أجواء
السماء وفي الفضاء، العلماء المؤمنون: في الحديث، في العقيدة في التفسير، في
كل جانب من جوانب الكون - العلماء هم ورثة الأنبياء، وهذه الوراثة
لا يضارعها في المجتمع أية وظيفة أخرى.

وأشاد الله سبحانه وتعالى بالعلماء، ووصل بهم إلى الذروة الإيمانية، يقول
الله سبحانه:

﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم﴾

فقرنهم مع سبحانه وتعالى في شهادة التوحيد في أشهد أن لا إله
إلا الله.

إن الله سبحانه وتعالى لم يقرن طائفة من الطوائف به ويملائكته
إلا العلماء، وفي شهادة التوحيد قمة الإيمان، ذروة الإيمان.. فذروة الإيمان
وقمته إنما هي التوحيد، إنما هي أشهد أن لا إله إلا الله.. من الذي شهد
مع الله مع ملائكته؟ إنهم العلماء

ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ وهذه
الآية ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ جاءت في معرض الحديث عن
لكون، عن الطبيعة، عن الجبال، عن الفرائس السود، عن هذا الكون في

نعمه مددته. جاءت هذه الآية تصف الكون في طبيعته المادية، ثم تقول:
﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

وفي حقيقة الأمر أنك لا تكاد تجد عالم التشريح في مجاله حينما يرى هذه الدقة الدقيقة، هذا الإبداع المبدع هذا النظام الدقيق هذا الإحكام في الجسم الإنساني وفي الجسم الحيواني، لا يرى ذلك إلا ويخضع ساجدًا على هذا الإبداع المتقن، وعلى هذا الإحكام المحكم في التكوين الإنساني، وفي الجسم الحيواني أو النباتي، ولا تجد عالمًا من علماء الفلك حينما يرى هذه السعة الشاسعة في الكون وهذه الآلاف والملايين من الكواكب والنجوم وكلها تسير في أفلاكها بدقة:

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾^(١).

حينما يرى ذلك، حينما يرى أحد هذه الدقة في المسير وهذا النظام المحكم في هذه السعة، وفي هذه الآلاف والملايين من الكواكب والنجوم، حينما يرى ذلك يخضع ساجدًا.

العلماء المؤمنون، وهم الذين يشهدون التوحيد مع الله ومع ملائكته، هم أشد خشية لله لأنهم أعرف الناس بالله، وأعرف الناس بأنه هم أشدهم خشية له سبحانه.

واطلق الإسلام حائلًا على العلم، مؤيدًا للعلم، محييًا للعلم، مادحًا للعلم
واطلق المسلمون استجابة لله سبحانه وتعالى ودعوة رسوله انطلقوا في
جميع أرجاء العالم باحثين منقبين، كاشفين عن قوانين الله في كونه، وعن
سنن الله الكونية، وعن سنن الله في المجتمعات، عن كل هذه الأمور التي
يجب على الإنسان في صلته بالكون، وفي صلته بالآخرين، يجب عليه أن
يعرفها، وكانت الحضارة الإسلامية في قوتها وفي عظمتها، في هؤلاء الأعداء
لدين أنتجتهم هذه الحضارة.

أبو يزيد العالم:

واتبعًا للجو الإسلامي، وعلى غرار السابقين والمعاصرين، بدأ
أبو يزيد رحلته الروحية بالعلم، وسنسير في جو أبي يزيد شرحين الوضع
صحيح لموقف أبي يزيد من العلم حتى لا يلبس على بعض لباس موقفه
منه.. إنه يقول فيها يروي أبو يحيى العربي البسطامي:

كان مشايخ ناحية بسطام من أصحاب أبي يزيد يتحدثون عنه أنه كان
يقول:

«كان ابتداء أمرى أن أقامني الحق تعالى على أبواب العلماء وصحبة
متعلمين دهرًا طويلًا، فلما استكثرت من أنواع العلوم جعلت نفسي تحدثني
أنك قد علمت وعرفت، والعالم والعارف في أعلى المراتب فشرفت في الحق
تعالى حتى رأيت ازدحام العلماء والعارفين، فلم أر لنفسى معهم موضع قدم.

ملائيت واصرفت ولم أصل إلى الحق».

قلت: العلم والمعرفة من غير حقيقة حجة، وكان عندى أن الحقيقة في العلم والاجتهاد.

ويلاحظ على هذا النص أمور منها

١ - أن أبا يزيد يقول: «أقامنى الحق».

وهو - في ذلك - يسير مع طبيعته المؤمنة بقوله تعالى: ﴿إليه يرجع الأمر كله﴾

٢ - ويصف أبو يزيد فترة الإقامة في سبيل العلم هذه، بأنها: «دهراً مريلاً».

ثم ماذا؟

٣ - ثم كان ما من شأن النفس أن تسؤل به: الفخر بالعلم والتعالى

ولعلم على هذه الصورة يعتبر حجاباً عند الداهيين إلى الله تعالى، وهم
ممن يرون ذلك يفرون من العلم إلى الله ضارعين أن يجنبهم أن يكون العلم

ومن الحق أن تقول: إنه لا يد من العلم لمن يريد السير إلى الله، ولكن
علم هو العلم المحدد بالكتاب والسنة، هو العلم بالمحكم، هو العلم

لا سعى في كل ما ورد به الكتاب والسنة. وهو - في الجانب المادى -
الكشف عن سنن الله الكونية، فهو في هذا وداك ريادة معرفته بآله تعالى،
ود خرج عن ذلك إلى الجدل والمراء والخلاف وإثارة الشبهات والبحث في
المتشابه فقد خرج إلى ما لا يجب الله ورسوله، وهو نذاك مدعاة للفخر
والعجب بالنفس والتعالى، فيكون حجاباً

٤ - ومن هنا يقول أبو يزيد:

«الحقيقة في العلم والاجتهاد».

أى العلم والعبادة

ودلك ينتج الصفاء والإلهام.

والإلهام الصادق هو هدف العلماء والراغبين الذين يسرون على طريق
القرآن في قوله عن موسى وهناء:

﴿فوجدنا عبداً من عبادنا آتياً رحمة من عندنا وعلمتنا من لدنا
علماً﴾^(١).

إن الصوفية يسعون إلى هذا النمط من العلم، وهذا النمط من العلم
يتأتى بتوفيق الله عن الجمع بين العلم الكسبى والعبادة بشرط أن يكون
علم الكسبى علماً - عبداً

(١) سورة الكهف آية ١٥

وهذا ما أراد أبو يزيد حينما يقول.

«الحقيقة في العلم والاجتهاد» ولقد ضرب الصوفية بهم وافر في العلم كسبي، وكانوا أئمة في هذا المجال» وقد سبق أن كتبنا مايلي:
«أما عن لصوفية والعلم فإن الصوفية يمثلون العلم الإسلامي في قمته
جميع فروع: في الفقه، وفي التفسير، وفي الحديث وفي الأخلاق».
وإذا أردنا أن نتحدث عن القمة العلمية الشاذلة - التي لا تضارع -
بما اجتمع لديها من علوم مدروسة مرواة بحكمة فيها الإتقان والاستنتاج
نحصره والنهصر المتابع، والاتباع الواعي: أعنى شخصية الشيخ الأكبر
عسى الدين، فإن الحديث عنها يستغرق مجلدات.

وإن مقدرات مؤرخي الفكر بين الشيخ الأكبر وغيره من الغربيين
وتشريقين تصعد به إلى القمة.

والشيخ الأكبر يذكر دائماً بحجة الإسلام الغزالي الذي جمع في إحيائه
بين كتاباً كل منها له استقلاله وله ذاتيته.. وألف منها - في إحكام محكم
- كتابه إحياء علوم الدين.

ولقد انهار تحت قلمه في سهولة ويسر عباقرة الفكر الفلسفي فتهاوتوا
نهاروا، وأتى عليهم كتابه النفيس «تهافت الفلاسفة».

وأخذ حجة الإسلام بدعة الفلسفة وعيث الفلسفة في الشرق
إسلامي.

وللإمام الغزالي أكثر من ثمانين كتاباً ورسالة، في الأصول والفقه
والتوحيد والفلسفة والتصوف.

ولا تزال كتبه تقرأ وتداول وعليها دائماً طابع النضرة: طابع الخلود
والصورة الجميلة في الصوفية - في الأغلب الأعم - هي صورة الجنيد:
لقد كان الكتبة (اللغويون والأدباء) يحضرون مجلسه لألفاظه
والمقهاء لتفريده.

والفلاسفة لدقة نظره ومعانيه.

والمتكلمون لتحقيقه.

والصوفية لإشاراته وحقائقه.

يقول صاحب الرسالة القشيرية عنه:

كان فقيهاً على مذهب أبي ثور، وكان يفتي في حلقته بحضرته وهو ابن
عشرين سنة.

ويروى صاحب الرسالة القشيرية عن أبي الحسين علي بن إبراهيم
الحداد يقول:

حضرت مجلس القاضي أبي العباس بن شريح، فتكلم في الفروع
والأصول بكلام حسن عجبت منه، فلما رأى إعجابي قال
أندري من أين هذا؟

قلت: يقول به الفاضل.

قال: هذا حركة بحالة أي تدب لحنية

وإذا ذكر الجهد ذكر أستاذة خيرة المعاصي.

وقد كان الحارث مثقفاً في الدين والتربية كأحسن ما يكون المثقف، لقد كان فقيهاً، وكان محدثاً، وكان متكلماً، وتبين عالماً في الأخلاق، وكان صوفياً، ولقد دخل في قوة في كل لما كان إلى وحدت في عصره بحد، مرشداً بجاذباً هادياً إلى الحق، والحق في طوره هو ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

وأنف المعاصي الكثير من الكتب في شتى مجالات العلوم.

وليأخذ الإنسان أي صوفي من هؤلاء الذين ذكرهم السلمي في طبعه أو الذين ذكرهم القشيري، أو الذين تحدث عنهم صاحب الحلية فسجد أنهم قوم اتخذوا من العلم عبادة، وعكفوا على دراسته تقريباً إلى الله

وما كان علم الكتب هو غايتهم الأخيرة وإنما مع علم الكتب كان طموحهم إلى تعلم الوحي، تعلم الذي يبعثه الله لبعض عباده العلم الذي سافر موسى عليه سلام سفره شاقه محمده ليلس في هابها مع عبد من عباد الله تعالى، علمه الله من لدنه علماً، بقول سبحانه عن موسى وقتاه

في فوجدا عبداً من عبادنا آتياه رحمة من ربنا وعلمناه من لدن

سأله^(١) وهو علم يمنحه الله لمن حقق له الميضية

ولأن هذا العلم - وهو مطمحهم الأخير - لا يتأتى إلا بإخلاص عبودية لله، ولأن إخلاص العبودية لله لا يتأتى إلا بأن يكون الاستغراق في العمل؛ صلاة وذكرًا وصيامًا... من الأسس الجوهرية في حياة الإنسان، بأنهم اتجهوا في صورة موقفة إلى العمل.

لقد أخذوا الكتب بقوة، وكانوا تقياء، فأفاض الله عليهم من إلهاماته، واتسم ما دونوه بطابع الروحانية، واتسم بالنضرة، وكان طابعه أنه يزكو على مر الزمن.

والصورة الحية لشار إلهاماتهم هي كتاب: «إحياء علوم الدين» لشيخ الإسلام، وكتاب «الحكم» لابن عطاء الله.

ولقد كان لكتبهم الأثر الكبير الواضح في الهداية على مر المصور.

وإذا عدنا الآن إلى أبي يزيد على ضوء ما سبق فإننا نفهم نصوصه، في وضوح واضح، إنهم يفرقون بين نوعين من العلم:

- ١ - علم كسبي: من الكتب ومن المعلمين.
- ٢ - علم وحيي: أي إلهام عن الله تعالى.

(١) الكتب: ٦٥

وكلا العلمين أثبتها الله سبحانه وتعالى.

وسحدث أبو موسى - راوى أخبار أبي يزيد - عن موهف أبي يزيد من غيب الإلهام، فيقول:

« في ناحية أبي يزيد رجل فقيه، عالم تلك الناحية، فقصده أبى يزيد.

فد حكي لي عنك عجائب.

فقال له أبو يزيد: وما لم تسمع من عجائبي أكثر.

قال: أعلمك هذا عن، ومن أين؟

فقال أبو يزيد: علمي من عطاء الله عز وجل، ومن حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«من عمل بما يعلم ورثه الله علم مالا يعلم».

ومن حيث قال:

العلم علمان: علم ظاهر وهو حجة الله على خلقه، وعلم باطن وهو العلم النافع.. فعلمك يا شيخ نقل من لسان عن لسان للتعليم لا للعمل، وعلمي من الله إلهامات من عنده.

فقال له الشيخ: علمي بالتأكد عن الثقات أكابر عن أكابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن ربه عز وجل.

فقال له أبو يزيد: يا شيخ، كان للنبي صلى الله عليه وسلم علم عن الله يطلع عليه جبريل ولا ميكائيل.

قال نعم، ولكن أريد أن يصح لي أن أعلمك مدى تفوق هو، عن نعم، أثبتته لك على قدر ما يستعز في فديك معرفته.

ثم قال يا شيخ، أما علمت أن الله عز وجل كلم موسى بكلمة قبلا، وكلم محمدا صلى الله عليه وسلم ورآه كفاحا، وكلم الأنبياء وحيا؟

قال: بلى.. ثم قال: يا شيخ، ما علمت أن كلام الصديقين والأولياء بالإلهام منه لهم، وفوائده وتأيدده لهم، حتى أطلقهم بالحكمة، ونفع بهم الأمة؟

ومما يؤكد ما قلت ما أعلم الله عز وجل أم موسى أن تلقى موسى في البابوت حتى حمت ولدها وألفته في اليم، وكما ألقى الخضر أمر السفينة وأمر الغلام وأمر الخائنط.. وقوله لموسى: ﴿وما دعنته عن أمري﴾ وأده علما من عند الله عز وجل في قوله: ﴿وعلمناه من لدنا علما﴾.. وكذلك أهم يوسف في السجن.. وكما قال أبو بكر لعائشة: إن ابنة خاتجة حامل بابتة مولدت جارية فقال إنما أعلمت ذلك، وب أعلم عمر وكان على المنبر فنادى: يا سارية الجبل.. ومثل هذا كثير.

ومن الإلهام قوم حصه الله بالفوائد فضلا من الله عليهم وكرامة منه، وقد فضل الله بعضهم على بعض في إلهام ولعراسه فقام لشيوخ وعلم

سرى صلا وسفيت صدى

وردا حدث محدث عن علم إلهامى بار - لك يشير دائما حدلا عند علمه
سوى. ومن ذلك ما يلى، يقول أحد المؤرخين لابي يزيد

-- مسبح يقولون: طعن بعض العلماء فى كلامه فقال ليس هو
سرى منبه فى العلم، فأجابه: أكل العلم قد بلغت؟ قال: لا.. حال هذا
من العلم فى النصف الذى لم يملك.

وإذا آمن الإنسان بالإلهام - ولا بد من أن يؤمن به - فإنه يفهم فى سرى
ما يقوله الصوفية فى ذلك مثل ما يقوله أبو يزيد:

«أخذتم علمكم ميتا عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحى الذى
لا يموت...! وما يقوله ابن عربى:

علماء الرسوم يأخذون خلفا عن سلف إلى يوم القيامة فيبعد النسب،
والأولياء يأخذون عن الله، ألفاء فى صدورهم من نوره رحمة منه، وعناية
سيفت لهم عند ربهم.

وما يقوله أبو يزيد:

ليس العالم من يحفظ من كتاب فإذا نسى ما حفظ صار جاهلا بل من
يأخذ علمه من ربه أى وقت شاء، بلا تحفظ ولا درس.

وهذا هو العالم الربانى.

ويحدث أبو يزيد عن نواتق معلم، ويقول فى ذلك، وقد سئل عن
العلم فقال: «إنما يحسن طلب العلم وإحياء الرسول صلى الله عليه
سرى من يطلب محرابه - يعنى لى صلى الله عليه وسلم أو المخبر
به فأما طيبه لى من نفسه عند الخلق فيه برداد بعد من الله ورسوله.

ومعنى فنقول: كان أبو يزيد متمكنا من العلم الكسبى، وما يوضح ذلك
سرى قوله أحد مؤرخيه

وبلغنا أن بعض العلماء طعن فى كلامه وقال: ليس بالذى يقول فى
تعليم، فقل له - نظر فى كتابك لفلان إلى ورقة كذا حتى تجد ما أقوله
سرى، ففتش عنها فوجد فيها ما أشار إليه من تعلم الدال عليه

وتبعنا لتتفرقه بين العلم لكسبى ولعلم الإلهامى يفرق أبو يزيد بين
صفات العالم وصفات العارف، وفى ذلك يقول عبيد بن عبد القاهر قال
أبو يزيد:

العارف فوق ما يقوله، والعالم دون ما يقول، والعارف ما فرح بشىء
خط ولا خاف من شىء - تما - والعارف ملاحظ ربه، والعالم يلاحظ نفسه
بعلمه، والعايد يعبد بالحوال، والعارف يعبد فى الحال، وثواب العارف من
ربه هو، وكمال العارف احتراقه فيه له

ويتهى العلم والاجتهاد إلى ما يقوله أبو يزيد:

«الحق مثل الشمس مضيء: إذا نظر الناظر إليه أيعن به، فمن طلب

عنه الثاني فهو في الخسران.

وسمى من هذا الحديث عن العلم برأى الهجویری فی أبی یزید من هذه
رویه فی هاية الحديث عن العلم، إن الهجویری يطلق على أبی یزید
«ملك المعرفة».

ولكن هذه المعرفة التزم فيها أبو یزید - كما ذكرنا - الشرع الشريف
يقول الهجویری كما يروى غيره أيضًا:

روى أنه قال:

«عملت في المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئاً على أشد من العلم
ومتابعته، ولولا اختلاف العلماء لبقيت، واختلاف العلماء رحمة إلا في تحريد
التوحيد»

ثم يعلق الإمام الهجویری على ذلك بقوله:

وهذه حقيقة واضحة لأن الجبلة الإنسانية ميالة إلى الجهل أكثر منها إلى
العلم، ولذلك من السهل أن تقوم بأعمال كثيرة عن جهل، ولكن ليس من
السهل أن تخطو خطوة واحدة معرفة، وطريق الشرع الشريف أدق وأحد
من الصراط في الدار الآخرة، لذلك فإنه يجب عليك أيها السالك في كل
أحوالك أن تعتد بالشرع الشريف وإن لم تصل درجة عالية أو مقامًا كاملاً
فإنك على كل حال تسقط في وسط دائرته، وكفى بذلك شرفاً أن يفي
معك عملك الموافق، وإن بلغت كل شيء وأهملت الشرع لم تصل شيئاً، وقد

ظهر ذلك كل أرباب اللسان للشرع، وإهمال هذا الاقتداء من أصر
ما يكون على المرید.
لقد كان العلم عند أبی یزید التزاماً وذلك يسلمنا إلى الحديث عن
أبی یزید والتزام الشريعة.

الفصل الثالث

أبو يزيد والتزام الشريعة

والمجتمع الإسلامي الصادق يقوم على أسس من كتاب الله وسنة رسوله
صل الله عليه وسلم.

ورسول الله صل الله عليه وسلم هو الصورة التطبيقية للمبادئ
القرآنية، وهو صلوات الله وسلامه عليه في قوله رجاله وفعله شرح
للقرآن. وكما يتبع الصوفية كتاب الله سبحانه فإنهم يتخذون رسول الله
صل الله عليه وسلم أسوة متبعين في ذلك قول الله تعالى:

﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم
الآخر وذكر الله كثيراً﴾.

ولقد كان لأبي يزيد في هذا الجانب مواقف تذكر فتشكر، إنه يقول:
«لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يشرع في الهواء فلا

حسب ما يحسن بطوروا كيف مجدونه عند الأمر والنهي وتحفظ الحدود وأداء

الحدود

وداب يوم قال أبو يزيد لأحد أصحابه.

«م - حتى ينظر إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية - وكان رجلاً مشهوراً بالزهد - فمضينا إليه ، فلما خرج من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقه تجاه القبلة، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه، وقال: هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يكون مأموناً على ما يدعيه؟».

وللصوفي عند أبي يزيد صورة جميلة، لها من الدنيا نصيب، ولها في الآخرة حظ وافر، وهي صورة تسير على طريق القرآن والسنة:

إنه سئل عن الصوفي فقال:

«هو الذي يأخذ كتاب الله بيمينه، وسنة رسوله بشماله، ويظهر بإحدى عينيه إلى الجنة وبالأخرى إلى النار، ويشتر بالدين والبر تدى بالآخرة، ويلبى من بينها للمولى: لييك اللهم لييك».

وكان أبو يزيد يتحرى مرضاة الله في كل ما يأتي وفي كل ما يدع: يفعل ذلك في يفظته، ويلتزمه حتى في منامه.. إنه يقول:

رأيت رب العزة في المنام فقال: إيش تريد؟

فقلت: أريد ألا أريد غير ما تريد.. فقال لي: أنا لك كما كنت لي.

ولقد عرف أبو يزيد - من غير شك - حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الجميل الحاسم الذي يقول فيه.

«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به».

ويقول أبو يزيد متناسقاً مع الحديث الشريف:

طلب هواه في خلاف هواك ومحبه في بفض نفسك الأمانة بالسوء، فإنه معروف عند مخالفة الهوى، محبوب عند بفض النفس».

وأبو يزيد في موقفه هذا من الاتباع إنما يسير في الخط الذي سار فيه للصوفية الصادقون من قبله، وسار فيه للصوفية الصادقون من بعده.

ولا بد من الحديث عن مواقف الصوفية من هذا الموضوع - موضوع الاتباع - وذلك لما وقر في أدها بعض الناس من عدم التزام الصوفية للشريعة:

ونبتدئ بذكر كلمة للإمام الكامل الفقيه الأصولي المفسر الإسفراييني صاحب كتاب «التبصير في الدين» وهو من أئمة أهل السنة، المعنيين أشد عناية بالرد على كل من يخالف مذهب أهل السنة.

إنه يذكر ما يمتاز به أهل السنة عن غيرهم من الخوارج والروافض والقدرية فيذكر أن سادس ما يمتاز به أهل السنة هو:

إلا الاستعداد بالتصفية المجردة، واحتضار الأمة، مع الإرادة الصادقة،
والتعطش التام، والترصد بدوام الانتظار لما يقتضيه الله من الرحمة

ومن هذا الطريق يقول ابن خلدون:

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم على مثل هذه المجاهدة، وكان حظهم
من هذه الكرامات أوفر المخطوطة، لكنهم لم يقع لهم بها عناية
وفي فضايل أبي بكر وعمر وعثمان وعلى رضي الله عنهم كبير منها،
وتبعهم في ذلك أهل الطريقة، عن اشتملت رسالة القشيري على ذكرهم،
ومن اتبع طريقهم من بعدهم.

هنا فيما يتعلق بالطريقة.

أما فيما يتعلق بالموضوع والشعور والأحوال فإن الصوفية على وجه
العموم تهبوا في صورة حاسمة إلى وجوب التزام الشريعة:

لقد تحدث الإمام الجليل أكثر من مرة - فيما يتعلق بالصلاة بين التصوف
والشريعة - وما قاله في ذلك:

«الطرق كلها مسدودة على المطلق إلا على من اقتضى أثر الرسول صلى
الله عليه وسلم وابع سنته ولم طريقته».

وقال أيضاً:

من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقبدي به في هذا الأمر، لأن

عدم التصوف والإشارات، ومالم فيها من الدقائق والمقائق لم يكن قط
لأحد من أهل البدعة فيه حظ، بل كانوا محرومين عما فيه من الرامة
والعلاوة، والسكينة والطمأنينة.

وقد ذكر أبو عبد الرحمن السلمي^{٥٤} من مشايخهم قرياً من ألفه وجمع
إشاراتهم وأحاديثهم، ولم يوجد في جلستهم قط من ينسب إلى شيء من بدع
الغفيرة والروافض والخوارج.

وكيف يتصور فيهم من هؤلاء، وكلامهم يدور على التسليم والتفويض،
والتبرئ من النفس، والتوحيد بالمطلق والمشيئة.

وأهل البدع ينسبون الفعل والمشيئة والمطلق والتقدير إلى أنفسهم وذلك
بجزل عما عليه أهل المقائق من التسليم والتوحيد.

بعد هذا نبدأ في النظر إلى طريق التصوف وصلته بالشريعة، يقول
الإمام العراقي:

إن الطريق إلى ذلك إما هو: تقديم المجاهدة، وهو الصفات المذكورة،
وقطع الملاقاة كلها، والإقبال بكنه الأمة على الله تعالى.. ومنها حصل ذلك
كان الله هو المتولي لقلب عبده، والمكفل له بتوجيهه بأنوار العلم.

وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة وأشرق التورق في القلب،
واشرح الصدر، وانكشف له سر الملكوت، وانفتح عن وجه القلب حجاب
المرء باطن الرحمة، وتلاأت فيه حقائق الأمور الإلهية، فليس على العبد

سماهد مفيد بأصول الكتاب والسنة»

ولقد كان الإمام العراقي في سلوكه وفي قوله، في حياته الخاصة والعامة،
بدرم السريعة ويقول: إن المحققين قالوا:

«لو رأيت إنساناً يطير في الهواء، ويمشي على الماء، وهو يتعاطى أمراً
يخالف الشرع، فاعلم أنه شيطان».

يقول أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه:

«ومن دعا إلى الله تعالى بغير ما دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم
فهو بدعي».

والواقع: أن المثل الأعلى للصوفية على بكرة أبيهم إنه هو رسول الله
صلى الله عليه وسلم، وهم يحاولون باستمرار أن ينجسوا شهادته، وأن يسيروا
على منواله، فهو إمامهم الأسس في كل ما يدعون، وهم يتابعونه مهتدين
في ذلك بقول الله سبحانه وتعالى.

«لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم
الآخر وذكر الله كثيراً»^(١).

وبعد: فلعل مما يبين مدى التزام أبي يزيد للشريعة وللأخلاق الإسلامية
ما يلي:

(١) سورة الأحزاب، ٢١.

فريضة البدن^(١)

يقول علي بن محمد بن صالح بن سهل القومسي، قال أبو يزيد
سبطامي، عشرة أشياء فريضة على البدن.

أداء الفرائض، واجتناب المحارب، والتواضع لله، وكف الأذى عن
إخوان، والنصيحة للبر والفاجر، وطلب المغفرة، وطلب مرضاة الله في
جميع أموره، وترك الغضب والكبر والبغى، والمجادلة من ظهور الجفاء، وأن
يكون وصي نفسه ينهيًا للموت.

حصن البدن:

قال: وقال أبو يزيد:

عشرة أشياء حصن البدن:

حفظ العيدين، ومعاودة اللسان بالذكر، ومحاسبة النفس، واستعمال
العلم، وحفظ الأدب، وفراغ البدن من شغل الدنيا، ولعزلة من الناس،
ومجاهدة النفس، وكثرة العبادة، ومتابعة السنة.

في هذه النصوص يقصد أبو زيد بكلمة «البدن» المعنى الذي تدل عليه كلمة «الكائن
بشيء» أو «الإنسان».

شرف البدن.

قال: وقال أبو يزيد:

عشرة أشياء شرف البدن:

الحلم، والحياء، والعلم، والورع، والتقى، والخلق الحسن، والاحتمال،
والمداواة وكظم الغيظ، وترك الزوال.

خراب البدن:

قال: وعشرة أشياء تخرّب البدن:

مصاحبة من لا يحميه دينه، ومفارقة أهل الخير، ومتابعة انفس، وبجانية
الجماعة، وبجاسة أهل البدعة، وطلب مالا يعتبه، وتهمة الخلق، وطلب
العلو، وهم الدنيا.

ما يميم البدن:

قال: وعشرة أشياء تميم البدن:

ملة الأدب، وكثرة الجهل، وتهمة الخلق، وشهوة البدن، وطلب الرئاسة،
والميل إلى الدنيا، ومحابة النفس عند الحق، وكثرة الأكل.

ذل البدن:

قال: وعشرة أشياء فيها ذل البدن

الحدة، والغضب، والكبر والبعى، والمجادلة، والبخل، وإظهار الجفاء،
وترك حرمة المؤمن، وسوء الخلق وترك الإصاف

الفصل الرابع

أبو يزيد والشطح

عن الشطح

ولعل الكثير من الناس يتساءلون.

إذا كان الأمر كذلك فيما يتعلق بآبي يزيد، وتحكيمه الكتب
والسنة، فما الشأن في هذه التعبيرات التي تسبب إليه، والتي يرى فيها
البعض مظاهر لا تتفق مع الشريعة الإسلامية؟

وردنا أولاً. هو أن ما ذكرناه سابقاً يحكم على غيره. أي أن ما ذكرناه
سابقاً هو الأصل. وهو الذي كان عليه أبو يزيد. أما ما عداه مما يتناقض معه
فإنه غير صحيح.

وما من شك في أن بعض الناس من دينهم أن يفتشوا على الآخرين،
وأن ينسبوا إليهم افتراء - ما لم يكن لهم.

وهذا العريق من الناس مجد لذة في ذلك، لأن في قلبه مرض لا يهدأ إلا
بشئ من الآخرين، وبما يكون من هذا القبيل وعن هذه البواعث
مرضية الكثير مما نسب إلى أبي يزيد.

وعن ذلك يقول شيخ الإسلام الإمام محمد الله الأنصاري الهروي
سنو سنة ٤٨١.

إن كثيراً من الأكاديب قد انتحل باسم أبي يزيد البسطامي، مثل قوله
«صعدت إلى السماء، وضربت قبق بإراء العرش».

وسئل أبو علي الجوزجاني رضى الله عنه عن الألفاظ التي تحكى عن
أبي يزيد فقال رحمه الله - في حكمة دقيقة وفي بصيرة ماعدة:

أبو يزيد تسلم له حاله ولعله بها تكلم على حد غلبة حال أو سكر، ومن
أراد أن يرتقى إلى مقام أبي يزيد فليجاهد نفسه كما جاهد أبو يزيد فهناك
يفهم كلام أبي يزيد

أما الإمام الذهبي - الناقد الصارم - فإنه يقول

«نعلوا عنه أشياء كبيرة، الشأن عدم صحتها».

وبعد أن ذكر بعض ما تلوكه الألسنة، مما يقول عنه: الشأن عدم
صحتها». قال:

«ومن الناس من يصحح هذا عنه ويقول: قتله حال سكره». اهـ
وقال ابن حجر بعد حكايته ذلك عنه، ومعقفاً على قوله، قلت:

أبو يزيد يسلم له حاله، وأتفه متولى السرائر

ويتحدث الجنيذ عن شطحيات أبي يزيد ويقول:

إن الرجل مستهلك في شهود الإجلال، فنطق بما استهلكه، لذهوله في
الحق عن رؤيته إياه، فلم يشهد إلا الحق تعالى، فبعضه فطو به ولم يكن من
علم ما سواه، ولا من التعبير عنه ضناً من الحق به، ألم تسمعوا مجنون ينى
عامر لما سئل عن اسم نفسه فقال: ليل، فنطق بنفسه ولم يكن من شهود
إياه فيه.

وبما يتناسق مع كلام المنهيد أن يوسف بن الحسين قال: كنت عند
ذى النون فجهاه رجل فقال له: رأيت أبا يزيد؟ فقلت له: أنت، أبا يزيد..
فقال: ومن أبو يزيد؟ ياليتني رأيت أبا يزيد.. فبكى ذوالنون وقال: إن أخى
أبا يزيد فقد نفسه في حب الله، قصار يطلبها مع الطالبين.

ومع أن الشك قوى في نسبة الكثير مما زعم البعض وروده عن أبي يزيد،
فإن هناك محاولات للتفسير والشرح، يقولون مثلاً: إنه قرئ عليه: «إن
بطش ربك لشديد»

فقال: بطشى أشد.

ووجهه كما قال ابن عربي: أن بطش العبد بطش معرى عن الرحمة،
فبسبب سوء حاله بطشه من الحرمة شيء وبطش الحق بكل وجه فيه رحمة
المبطلوس به فهو الرحيم له في بطشه.

واقه سبحانه وتعالى حينئذ قال: ﴿إِنْ بَطِشَ رَبُّكَ لَشَدِيدٌ﴾. أعقب ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ يَدْعُو وَيُعِيدُ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

إنه سبحانه غفور ودود في بطشه، وحينئذ تحدث عن بطش الإنسان قال سبحانه: ﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جِبَارِينَ﴾ فبطش الإنسان فيه جبروت، وبطش الله مشرب بالرحمة.

ولقد ردوا عن أبي برد تفسيراً للكلمة من الكلمات التي يرووها كثيراً عنه، يروون أنه قال: قلت يوماً سبحانه الله.

فسادني الخالق في سري: هل في عيب تزعمني عنه؟ قلت: لا يارب. قال فنفسك نزه عن ارتكاب الرذائل، فأقبلت على نفسي بالرياضة حتى تزهرت عن الرذائل. وتخلت بالفضائل، فصرت أقول: سبحانه ما أعظم شأنه. من باب التحديث بالنعمة.

ولست أدرى ما إذا كانت القصة التالية تحتاج إلى شرح وتفسير، أو اعتدال عن أبي يزيد، يقول محمد بن علي الواعظ.

وفياً أفادني بعض شيوخ الصوفية حاكياً عن الجنيد بن محمد قال: سمعت أبا موسى عيسى بن آدم ابن أحمى أبي يزيد طيفور بن عيسى بالفارسية فترجمناها بالعربية، قال أبو موسى.

وكان أبو يزيد إذا حاج بدا منه كلام نحفظه، ومنه قوله:

«وده ودي، وودي وده، عشقه عشقي. وعشقي عشقه حبه حبي. وحبي حبه»!

حبه»!

الفصل الخامس

أبو يزيد العابد

بدأ أبو يزيد رحله إلى الله بالعلم، العلم لم يتم. لكنه لا يكفى أن تعلم ولكن لابد أن تعمل «والمعمل جهاد، إنه مجاهدة للنفس من أجل الاتباع الصادق، ويقول أبو يزيد:

«عملت في المجاهدة ثلاثين سنة.

ويفصل أبو يزيد في هذا الأمر، ونحن نسير معه في المنهج الذي أقامه الحق فيه.

وإذا كان الحق أقامه في العلم دهرًا طويلاً لم يكن العلم فيها حائلاً بينه وبين أداء الفروض. فإن الحق تعالى أقامه:

مع المصلين في الجماعة والمحارب دهرًا طويلاً. لم يكن يفوته مع الإمام التكبيرة الأولى».

ودمه الحق:

«مع الصائمين دهرًا طويلاً».

واذمه الحق:

«مع زوار بيته دهرًا طويلاً».

إنها العبادة. هل تعد ذلك مرحلة تلى العلم؟ أو تعدها مرحلة مصاحبة للعلم؟ أو تعدها مرحلة تلت معرفة المبادئ العلمية الأولى الضرورية لإقامة فرض الدين ثم صاحبت درجات العلم التخصصية؟

إننا نغفل إلى الفرض الأخير. وذلك أن كلا من هذه الأمور العلم، الصلاة، الصيام، الحج، لا يتتافى بعضها مع البعض الآخر، فكلها عبادة.. وكان أبو يزيد معنيًا بالعبادة عناية شديدة.

يقول عنه صاحب كتاب «كشف المحجوب».

كانت حياته منذ البداية تقوم على مجاهدة النفس وكثرة التعب والنصوص التالية تبين شيئًا عن عبادة أبي يزيد التي كانت تتضمن طول التأمل وطول التفكير، والتي كانت تطبيقًا لقوله تعالى واصفًا أولى الألباب

﴿إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَاختِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ

ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيتنا وما للظالمين من أنصار. ربنا إنا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار. ربنا وآتنا ما وعدتنا علىٰ وسلك ولا تحزنا يوم القيامة. إنك لا تخلف الميعاد»^(١).

عبادته وحياته:

وأبو موسى خادم أبي يزيد وابن أخيه، ولد آدم، وقد اجتهد في خدمته، وجد في تعهده ووده، وبالف في حشمته وحرمة، حتى نقل أنه كان -أبو موسى- يحفظ على أبي يزيد أوقات الصلوات، حتى كان يتردد إلى باب نوحان - ونوحان موضع فسيح - لم يكن بينه وبين رؤية الصبح حجاب، إذا رأى الصبح قد انفجر أعلنه، فيهرز إلى المسجد من صومعته.

وقال ابن معاذ:

رأيت في بعض مشاهداته كالفرق ضاربًا بذقنه على صدره شاحصًا بعينه من العشاء إلى الفجر، ثم سجد عند السحر فأطال سجوده، ثم قعد فقال: اللهم طلبوا منك فأعطيتهم طي الأرض والمشى على الماء وركوب الهواء وانقلاب الأعيان، وإن أعوذ بك منها.

ويصف أبو يزيد مجرى طريق العبادة، ويقسمه بحسب أوضاع الناس

(١) ال عمران: ١٩٠-١٩٤

وعبد راغب في أعمال البر، مقبل في إقامة النطوخ بعد أداء العرنس، كثير النوافل، طالب للخيرات، بائع دينه بأخرته، يحمل أيامه في طاعة الله؛ فهذا عبد عامل لله تعالى، طالب التواب ملتصا برضاه، راغبا فيما

عده الله. تابعا لأسيائه ورسلكه، فطوري له.

وعبد يجتهد في ارتداد مرضاة الله تعالى، مودب لنفسه، قائم عليها باستخراج العيوب منها، محارب لعدوه، صاحب اجتهد وسهر، ويكاه وتفرح. عالفاً لنفسه خير متبع هواها. زاهد في دنياها. يردم كسرها. يسلمها على المحبة الراضية مرة تقوم، ومرة تسقط، وهو دائم المحاربة مع العذرة إلى أن ينصروه الله عليها. فهذا عبد صالح يحفظ حق عبودية مبروره.

وأما مجرى الخاص فكل وجهين.

عبد تائب إلى ربه. تائب على ما ضيع من أمر ربه. مقبل إليه بقلبه. حارب من الخلق إليه.

وعبد حزين خائف. قد عرف الوعد والوعيد. راج. راغب راض. كريم على ربه. صادق. مستقيم. شاكر لآلاء الله. راض بقضائه. متعم به

وأما مجرى خاص الخاص: فكل وجهين أيضا.

عبد زاهد في كل ما شغله عن ربه عز وجل قد ولي وجهه عن الدنيا وأقبل على الآخرة واستأثر ذكر مولاه على سائر خلقه.

«عندما أبو موسى الديلمي يقول: إنه سمع أبا يزيد يقول. جرى طريق اليهودية لله تبارك وتعالى وشارطا على ثلاثة أوجه: عام، حسي، وحاسي الخاص».

فما مجرى حفظ عبودية العوام فكل خمسة أوجه

أوله عبد مذنب مريب غير تائب، قد غرته الدنيا فافترها ونسى الآخرة، ودعى بحطام الدنيا. فهذا عبد سوى طالب من ربه لا يعرف حق ربه ولا يحفظ حرمته، وهو عبد سوء لا يخاف من الله؛ ويكون الوعد والوعيد، فإن تائب تائب الله عليه، وإن مات على غير توبة فهو في مشيئة الله، إن شاء عذبه؛ وإن شاء غفر له فهو عدل منه.

وعبد وراء بلمه، يريد محبة الناس له؛ وحسن النساء عليه؛ يجتهد في العبادة والمقدمة لله عز وجل، ويريد بها البر عند الناس؛ والشرف والمذكر في الآفاق؛ قد رضى من الآخرة بالدنيا، ومن الدنيا بشاء الناس. فهذا عبد خاسر غافل.

وعبد مطيع لله تعالى في تأدية حقه، سابع لله، مؤد لفرائضه بحيث للمعاصي كلها، متباعد عن الآثام، متابع لأمره عز وجل، مقتد بستر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فهذا عبد ناصح لله ورسلكه المؤمنين والمؤمنات، وهو محمود عند الله وعباده، قائم على حفظ المبردية لله؛ مستقيم عليها

• من معوض أمره إلى الله تعالى. قانع ساكن قلبه إليه، راكن إلى
• عبده. منيب إليه. يريد الأنس والزلفة لديه. لا يريد من الدنيا والآخرة

ومن العبادة (الجهاد) وذلك يقتضى فصلا مستقلا.

الفصل السادس

أبو يزيد والجهاد في سبيل الله

لقد فرض الله جهاد أعداء الله ورسوله بكل وسيلة من الوسائل.
بالقلب وباللسان والمدفع.
وإنفاق المال في سبيل الله للتغلب عليهم.
وبذل النفس رخيصة في سبيل النصر.

وفي القرآن الكريم، وفي السنة النبوية الشريفة آيات كريمة، وأحاديث
سامية هي بيانات حربية من أقوى ما يكون. إنها بيانات حربية تختلف
أساليبها وتتنوع. فتكون في صورة نصيحة أو في صورة أمر. أو في صورة

ولقد أحاط الله ورسوله الجهاد بكل ما يكفل للمسلمين النصر بإذن الله
ابتداء من الجانب المادي

﴿واعبدوا: هم ما استطعتم من قوة﴾ إلى الجانب الروحي الذي استعاض
به كثيرًا، وتحدث عن مبادئ اجتماعية وأخلاقية هي أسباب ووسائل
عمر

لقد تحدث عن الثبات عند اللقاء.

وعن ذكر الله.

وعن الطاعة

وعن وحدة الأمة.

وعن عدم النزاع.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا، وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ
يُصْلَحُونَ. وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ،
وَاصْبِرُوا: إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

ويقول تعالى:

﴿إِنْ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْحَيَاةُ يُقَاتِلُونَ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ، وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ،

(١) سورة الأعراف ٤٥، ٤٦

وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ، فَاسْتَبْسِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ﴾^(١).

يقول الألوسي:

ترعيب للمؤمنين في الجهاد ببيان فصله ولا ترى ترغيبًا في الجهاد
أحسن ولا أبلغ مما في هذه الآية، لأنه أبرره في صورة عقد عاقده رب
الغزة جل جلاله، وثمنه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على
قلب بشر ولم يجعل المعقود عليه كونهم مقتولين فقط، بل كونهم قاتلين أيضًا
لإعلاء كلمة الله تعالى، وبصورة دينه سبحانه، وجعله مسجلًا في الكتب
السمائية، وماهيك به من صك! وجعل رعيه حقًا، ولا أحد أوفى من
واعده، فثبته أوثق من نقد غيره

وأشار إلى ما فيه من الريح والغور العظيم، وصور جهاد المؤمنين وبذل
أموالهم وأنفسهم فيه، وإثابة الله تعالى لهم على ذلك الجنة بالبيع والشراء.
وأقى سبحانه بقوله: ﴿يُقَاتِلُونَ﴾... إلخ بيان لمكان التسليم وهو المعركة،
وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم.

«الجنة تحت ظلال السيوف». ثم أمضاء سبحانه بقوله:

﴿وذلك هو الفوز العظيم﴾

(١) التوبة: ١١١

ومن هنا أعظم الصحابة رضي الله تعالى عنهم أمر هذه الآية لقد أخرج ابن أبي حاتم وغيره عن جابر بن عبد الله قال: نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.. إلخ فكثر الناس في المسجد فأقبل رجل من الأنصار ثانياً طرفي ردائه على عاتقه فقال: يا رسول الله أنزلت هذه الآية أقال صلى الله عليه وسلم: نعم، فقال الأنصاري: بيع وبيع لا تقبل ولا تستقبل.

أما إذا كان الاستشهاد فإن الله سبحانه وتعالى يقول

﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَيُسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ حَلْفِهِمْ أَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

وإن من موارث أسلافنا رضوان الله عليهم التي كانوا في الأغلب الأعم - يواظبون عليها أنهم كانوا يذهبون إلى الربط يرايطون فيها مسلمين مستعدين للجهاد، والربط: جمع، رابط وهي أمكنة على الحدود وعلى الثغور يربط فيها كل من وهب نفسه لله جاعلاً حياته في سبيله.

لقد كانوا يقيمون فيها حارسين حذرين من العدو أن يغير على بلاد المسلمين عن طريقها، فهم يسهرون الليل على أسوار الربط يرقبون أية

(١) سورة آل عمران، ١٦٩-١٧٠.

حركة مريبة من العدو مستعدين بأسلحة حصرهم مدزين على أحدث طرق القتال السائدة في زمانهم.

وكان أبو يزيد يربط. كان يرتقى سور الرباط ويستمر طيلة الليل حارساً له ممن يقصده من الأعداء، ولكنه لم يكن مربطاً محسوباً، وإنما كان مربطاً ذاكرًا؛ وقد جمع هذا بين حنتين اللتين ذكرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم حينها قال:

«عَيْنَانِ لَا تَمْسَهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ حُبِّهِ اللَّهِ وَعَيْنٌ سَهَرَتْ مَحْرُسٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

وكما أمر الله سبحانه وتعالى بالجهاد وحراسة في سبيل الله فإنه سبحانه وتعالى أمر بالذكر؛ بل أمر بالذكر لكثير في حالة الحرب فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَسُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا فِتْنَتَهُمْ فَتَمَنَّوْا أَنْ تُخْلَفُوا وَتَذْهَبَ رِيحَكُمْ وَاصْبِرُوا، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

والله سبحانه وتعالى يبين بهذه الكلمة لمرابطة الكريمة بعض عوامل النصر؛ وكما أن من عوامل النصر الثبات فإن من عوامله ذكر الله تعالى.

ولا تقل أهمية ذكر الله تعالى عن أي عامل من عوامل النصر، كان أبو يزيد يحرس ويذكر؛ ويتعبر آخر ذكر أبو يزيد بين المسجد ذاكرًا وبين الحرب مشهراً سيفه؛ ويقول أبو يزيد عن نفسه في صراحته، إنه ما كان

سجد إلا على حائط رباط أو حائط مسجد: أي أنه كانت حياته في مجال
العادة، وفي مجال الجهاد إنه يقول: لم أزل منذ أربعين سنة أن ما استندت
إلى حائط إلا إلى حائط مسجد أو رباط فعمل له: لم لا تستند وفي ذلك
رحمة؟ فقال: سمعت الله عز وجل يقول:

﴿مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^(١)

هل ترى من رحمة؟

وإذا كانت العبادة في الأعراف الإسلامية جهادًا فإن أبا يزيد كان
- حياته - في مجال الجهاد.

وإذا كان الجهاد في الأعراف الإسلامية أيضًا عبادة من أسمى أنواع
العبادة فإن أبا يزيد كان - حياته - في عبادة.

ويقول أبو يزيد أيضًا:

«أقامني الحق مع المجاهدين أضرب معهم بالسيوف في وجوه أعدائه
دهرًا طويلاً».

وفي هذه الكلمة تعبير جميل هو «أقامني الحق» إن الحق سبحانه هو
الذي أقامه، فالفضل له سبحانه، وهذه سمة من السمات الواضحة عند
لصوفية، إن الحق هو الذي يقيمهم فيأهم فيه من خير بل هو الذي

(١) سورة الزلزلة، ٧، ٨.

يقيمهم في الشكر حينما يشكرون على ما وفقهم إليه من أعمال الخير،
فالفصل منه، والشكر منه، والزيادة بسبب الشكر منه، والشكر على الزيادة
منه.

ولم يكن أبو يزيد بدعًا في الجو الصوفي، وإذا كان المؤرخون للصوفية
يمرون مرورًا عابرًا على جهاد الصوفية فإن ذلك لما يؤمن به المؤرخون من
أن أمر جهاد الصوفية من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى بيان مستفيض.

لقد كانوا يجاهدون في جميع الميادين:

جهاد النفس.

جهاد في المجتمع.

جهاد أعداء الله باللسان والقلب والسيف.

ونحب في هذا المقام أن نلقى بعض الضوء على جهادهم بالسيف بمناسبة
جهاد أبي يزيد.

لقد قلنا إنه لم يكن بدعًا في الجو الصوفي

ودلك أن من كبار المجاهدين الذين خاضوا لمعارك شيخ الصوفية
الإمام إبراهيم بن أدهم.

لقد غزا في البر، ولقد غزا في البحر، وكان في هذا ودالك ذاكرًا لله
لا يفتر.

وهم ربيب السيف والزهد والعبادة الإمام شقيق البلخي، من كبار زعماء الصوفية، وكان صاحب مدرسة مجاهدة عابدة. كان يسعده رؤية السيوف تلمع ورؤية المعركة تتقدم، وما كانت نفسه آن ذاك تطير شعاعاً من الأبطال، وما كان يقول لها: ويحك لن تراعى. وكان كلما حوى الوطيس وهو في غمار المعركة كانت سعادته أكثر وهو يسكل بالعدو في شجاعة لا تبالى بالموت وقعت عليه أو وقع عليها.

وكانت ثقة شقيق في الله مطلقة، وبلغت إلى الحد الذي أندفع فيه شقيق في الجهاد في سبيل الله، لا يبالى على أى جنب كان في الله مصرعه..
وها هو بين الصفيين في محاربة العدو مسلحاً بالإيمان والعدة الحربية وقد لتحم الجيشان فليس هناك إلا سيوف مصلته، ورقاب تقطع، ودهوس تسقط، وإذا بشقيق يقول لمن بجواره:

كيف ترى نفسك؟ أترى نفسك في حالة تشبه حالتك في الليلة التي زفت فيها امرأتك إليك؟

فقال صاحبه: لا والله.

فقال شقيق:

لكنى - والله - أرى نفسي في هذا اليوم مثل ما كنت في الليلة التي زمت فيها امرأتى إلى!

ومات شقيق شهيداً في ساحة الحرب والجهاد وسنه أربع وتسعون.

وكانت مدرسه شقيق الصوفية على عراره، فكان تلميذه حاتم مثلاً يرافقه في المعارك ويخوض غمارها غير هيب ولا وجل، وقد سبق أن كتبنا عنه ما يلي:

«وحياة حاتم الأصم تزيل كثيراً مما ألحق بالصوفية من تهم لا تمت إلى الحقيقة بصلة، وأول هذه التهم المزيفة أن الصوفية لا يمارسون الجهاد في سبيل الله - والواقع أن العكس هو الصواب.

وها هو ذا حاتم وأستاذه شقيق - وكلاهما من بلخ - قد ساهما في الجهاد بصورة ملحوظة، وقد استشهد أستاذه شقيق في ساحة الجهاد.
ويصف حاتم ساعة الوغى في معركة من المعارك التي خاصها فيقول:
«لا أرى إلا رهوشاً تنذر - أى تسقط - وسيوفاً تقطع ورماحاً تضرب».

وقد كان حاتم يحارب بشجاعة لا يبالى الموت، وقد صور عدم ميالاته بالموت عندما حدث أن تغلب عليه الأعداء مرة وأخذه أسيراً، وجثم أحدهم على صدره ليدهجه، إنه يصف شعوره وهو في هذه الحالة فيقول:
«لم يشتغل به قلبي، بل كنت أنظر ما يحكم الله تعالى فينا فبينما هو يطلب السكين التي يديح بها أصابه سهم فقتله فقامت سلياً معاقاً!
فام سلياً معاقاً ليواصل المعركة من جديد!

الأخبار، ومساكن طيبة يفتح جنات عدن ذلك الفوز العظيم. وأخرى تحبونها
حشر من الله وفتح لله عليه ﴿المؤمنين﴾

وقد اشترى الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بثمن هو الجنة وعبر عن
ذلك بـ قوله.

فإن لله شئى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في
سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقا في التوراة والإنجيل والفرقان
ومن أوفى بعهده من الله، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز
العظيم. ﴿التائبون، المعابدون، الحامدون، السائحون، الرَّاكعون الساجدون،
الأمرون بالمعروف، والنهي عن المنكر، والمافظون لحدود الله وبشر
المؤمنين﴾.

ووصف المؤمنين الذي ذكره الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات الكريمة
هو الوصف الذي أحب الصوفية تحقيقه وصلوا طيلة حياتهم على إظهاره
في الواقع

وأذا قفرتنا في ساحة الزمن قفزة واسعة فوصلنا إلى معركة المنصورة،
فإننا نجد كبار المؤمنين وصفوة الصوفية في قلب المعركة. لقد تركوا بيوتهم
وأسرهم وهربوا متوجهين إلى المنصورة ليساهموا في النصر، والاستشهاد في
سبيل الله، ولتكون الجنة تحت ظلال سيوفهم - ولقد كان - وهذا له أهميته

ونظرة حاتم للمجاهد نظرة عامة شاملة، وهي النظرة الإسلامية الصادقة
للمجاهد، إنه يقول:

المجاهد ثلاثة:

جهاد في سرك مع الشيطان حتى تكسره.

وجهاد في العلانية - في أداء الفرائض، حتى تؤديها كما أمر الله
وجهاد ضد أعداء الله لمنصرة الإسلام

إن الصوفية يحاولون أن يصلوا إلى مرضاة الله في كل أمر من الأمور
التي يحبها الله ورسوله، وموقفهم من الجهاد كموقفهم من مبادئ الإسلام
العاصلة التي يحبون أن يصلوا فيها إلى مرضاة الله ورسوله وهم يعرفون
قوله تعالى في هذه الصورة الخامسة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، ثُمَّ لَمْ عَرِّتُوا وَحَادُوا
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾^(١١).

ويعرفون أن الجهاد تجارة مع الله، وهي تجارة رابحة، يقول سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُبْئِكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ
أَنْ تُوَسَّوْا بِهِ، وَرَسُولُهُ وَتُجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ، ذَلِكَ جَرَى
لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ. وَجَدَ خَلْقَكُمْ جَنَاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا

(١١) سورة المائدة: ٥٥.

المخاصة - أبو الحسن الشاذلي وهو من صفوة الصفوة الصوفية - قد تجاوز الستين، وكان قد كعب بصره، ومع ذلك فإنه ترك بيته، وذهب إلى المنصورة مساهماً في المعركة بقدر استطاعته.

لقد كانت المعركة شغله، بالنهار، وشغله بالليل، لند كانت تشغله مستيقظاً، فيمر بسمته الوقور، وبهيئته المستعمدة من تقواه، وبالتور يشرق من وجهه بين الخنود، مشجعاً حاثاً، مبشراً بالنصر وبالحقة، فإذا ما جنة الليل أخذ يبتهل إلى الله سبحانه وتعالى متضرعاً خاشعاً راجياً التوفيق والنصر للأمة الإسلامية.

وفي ليلة من الليالي رأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في رؤيا طويلة، وأصبح - رضى الله عنه - يبشر بالنصر.

ولم تكن هذه هي الواقعة الأولى التي ساهم فيها أبو الحسن الشاذلي رضى الله عنه - ولم تكن الأخيرة.

وإذا قفزنا في ساحة الزمن مرة أخرى وجدنا الإمام الصالح الورع الراهد شمس الدين الديروطي ثم الديرمالي الراشد.

نقد حط - هاجم وانتقد - مرة على السلطان الغوري في ترك الجهاد. فأرسل السلطان خلفه، فلما وصل إلى مجلسه قال للسلطان: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته - فلم يرد عليه - فقال: إن لم ترد السلام فسقت وعزلت! فقال: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ثم قال: علام تحط عليا

بين الناس في ترك الجهاد وليس لنا مراكب نجاهد فيها؟ فقال: عندك المال الذي تعمر به، فطال بينها الكلام فقال الشيخ للسلطان:

قد نسبت نعم الله عليك، وقابقتها بالمعصيان! أما تذكر حين كنت مصرانياً ثم أسروك وباعوك من يد إلى يد، ثم من الله عليك بالحرية والإسلام ورقاك إلى أن صرت سلطاناً على الخلق؟ وعن قريب يأتيك المرض الذي لا ينجع فيه طب ثم تموت وتكفن، ويحفرون لك قبراً مظلماً، ثم يدس أنفك هذا في التراب ثم تبعث عرياناً عطشاناً جوعاناً، ثم توفع بين يدي الحكم العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة، ثم ينادى المنادى:

من كان له حق أو مظلمة على الغوري فليحضر، فيحضر خلائق لا يعلم عدتها إلا الله تعالى!

فتغير وجه السلطان من كلامه، فقال كاتب السر وجماعة السلطان: لعاعة يا سيدي الشيخ، خوفاً على السلطان أن يفتل عقله، فلما ولي الشيخ، وأفاق السلطان قال: انتوا بالشيخ معرض عنه عشرة آلاف دينار يستعين بها على بناء البرج الذي في دمياط فردها عليه وقال: أنا رجل ذو مال لا أحتاج إلى مساعدة أحد ولكن إن كنت أنت محتاجاً أقرصتك وصبرت عليك!

فما روى أعر من الشيخ في ذلك المجلس، ولا أدل من السلطان فيه. وقد توفي شمس الدين الديروطي رحمه الله في ربيع الأول سنة إحدى

وعشرين وتسعمائة وله من العمر نيف وخمسون سنة رضى الله عنه وإد
ما قفرا مره أخرى في ساحة الرمس - فقرة واسعة، فيها يلتقى بالصو
الشهير: عبد القادر الجزائري

لقد كان من كبار الصوفية، ومن كبار القادة في الحرب، وقد حارب
الاستعمار في الجزائر، وعمل بإيمانه القوى وصوفيته العميقة الأعاجيب و
الشجاعة والإقدام.

وقد بدأ الحرب بأفراد قلائل سرى إيمانه وإقدامه فيهم، فتمثلت فيهم
الشجاعة في أسرى مظاهرها، وأخذ عددهم يزداد شيئاً فشيئاً على مر
الأيام

أما أسلحتهم فقد كانت ما يأخذونه من أسلحة العدو

ولقد وجه الأمير عبد القادر الجزائري النداء تلو النداء للأمة الإسلامية
من أجل العون المالى والإنسانى، ومن أجل العون فى العتاد.. فكانت
المساعدات التى قدمت إليه مخجلة يندى لها الجبين! تشعر الأمة الإسلامية
بأنها أمة واحدة، وكأن لم تسمع ولم تقرأ قوله الله سبحانه وتعالى
﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّةُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾^(١).

وهوله تعالى:

﴿وَأَنَّ هَذِهِ أُمَّةُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾^(٢).

(١) الأنبياء ١٢

(٢) المؤمن، ٥٢

الامة الإسلامية لم تتجاوب مع الأخوة، وكأنها لا تشعر بقوله تعالى:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِخْوَةٌ﴾^(٣).

ولا يحس بالإحساس الإسلامى:

«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله»^(٤)

«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»^(٥).

«ترى المؤمنين فى توادهم وتراحهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه
عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى» وم يشن كل ذلك الأمير
عبد القادر على متابعته الحرب والكفاح ضد المستعمر، وعندما أسر أكرمه
الأعداء أنفسهم لشجاعته وشهامته ومروءته.

ولما حالت الظروف القاهرة بينه وبين الجهاد والتضحية الحربية - وذلك
بعد الأسر - مكث فى دمشق يدرس التصوف متخذاً «الفتوحات المكية»
كتابه لمصل فى الشرح والتفسير ولقد طبع هذه الفتوحات، وفى أثناء
قامته بدمشق ألف كتاب «المواقف»، وهو كتاب فى التصوف عريق بين
فيه وجهة نظر الصوفية فى مختلف الموضوعات.

(١) حجر - ١

(٢) -

(٣) البخارى

الفصل السابع

الوصول

بدأ أبو يزيد بالعلم فأقام به أمور دينه، وتخصص فيه حتى يقول
لمجربى عنه:

«له روايات عالية لأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم».

ويقول في وصفه: فلك المرفعة

وعن وصف علمه يقول:

«كان متمسكاً بالشرعية السمحاء، بعيداً عن مظان الشبه التي نسبها
إليه أهل الباطل تدعيًا لبدعهم».

وسار أبو يزيد في العبادة أشواطاً وأشواطاً.

ومع كل ذلك، ومع الجهد والاجتهاد، ومن درجه لمرب من الله سبحانه
وتعالى هي توقيق منه سبحانه، ولا يصل إليه إلا من يلجأ إليه

«درجة القرب إما أن تكون: «اجتباء».

وإما أن تكون: «هداية».

يقول سبحانه

﴿الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب﴾^(١)

إنه سبحانه الذي يجتبي، وهو سبحانه الذي يهدي
والوصول إليه إنما يكون به، ولا مناص من التصرع والابتغال والدعاء
ليتمرض الإنسان إلى نفعاته، وفي الأثر:

«إن لربكم في أيام دهركم نفعات؛ ألا فتعرضوا لها»

ويبدو أن أبا يزيد بصورة لا شعورية كان يشعر بنفسه، بل هو يصرح
بذلك بمناسبة موصوع الحج فيقول إنه حج أول مرة: «رأى الكعبة، لقد
رأى مبنى ورأى نفسه، ثم حج مرة ثانية فرأى مبنى الكعبة وشعر مع ذلك
رب الكعبة، وشعر بنفسه أيضاً ثم حج للمرة الثالثة فشعر برب الكعبة،
ولم يشعر بنفسه، وهنا علم أن هذه الحجة هي الكاملة

ومن أحل ذلك فإنه في المسح لدى تحدث فيه عن سيره إلى الله بعد أن
طوف بالعلم والعبادة والمجاهد، ولم يصل بكل ذلك إلى درجة القرب التي

(١) النورى الآية: ١١

بتمناها، وذلك بسبب رؤيته نفسه في العبادة والاعتداد بها، لجأ إلى الله
متضرعاً مبتهلاً خاشعاً

ويروى أبو يزيد ذلك فيقول:

قلت: إلهي ارحمني وأرحم حيرتي، وأقم بعبدك مقاماً أتقرب به إليك،
لا يناقسي في ذلك المقام منافس، ولا يزاحني فيه مزاحم، فلقد أشرف بي
على من سبقوني إليك ورأيتني لا أطيق اللعوق بهم
فناداني الحق: «يا أبا يزيد! إنه لا يتقرب إلى متقرب مثل من يأتي به
يس لي.»

قلت: إلهي! وما الذي ليس لك، وأنت تقرب من يأتيك به؟ ومن أين لي
ماليس لك؟

فقال: يا أبا يزيد ليس لي فاقة ولا فقر، فمن انتهى لدى الوسيلة بها
قربه من بساطي!

قلت: اللهم أشرف بي على ذوى الفقر والفاقة

فأشرف بي، فإذا هم شرذمة قليلون، لا أرى هناك ازدحاماً، ولا تنافساً،
ولا أرى لهم على الباب جلبة ولا صبايحاً، فعاهدته لا أوتر على الفقر
والفاقة شيئاً، مها أنا معه على هذا العهد، فليس من ساعه إلا وتأتي منه
كرامة جديدة

فلما عرف صدق الدعاة من قلبى والإيمان من نفسى كان أول ماورد على من إجابة هذا الدعاة أن أنسابى نفسى بالكلية، وذهب الخلاف بين بنى مع إعراضى عنهم^١؛

قلت: يارب كيف الطريق إليك؟

فقال لى: أتوك نفسك وتعالى.

قال الخواص: فاختصر له الطريق بألفاظ كلمة وأخصرها فإنه إذا ترك حط نفسه من الدارين قام الحق معه^١ وكان أبو يزيد يقول

«رأيت رب المرة في التوهم فقلت: يارب كيف أبعدك؟

فقال: فأرق نفسك وتعال إلى...» وقال أبو موسى الديلمي: سمعت أبا يزيد يقول:

توديت في سرى فقيل لى: خزانتنا معلومة من الخدمة، فإن أردتنا فليلك بالذل والافتقار

وقال أبو يزيد:

وإذا أردت أن تطلبه فاطلبه في رجوعك عما فوته^١ أو قال - أبو يزيد -:

طلعت الدنيا ثلاثاً ثلاثاً لا رجعة فيها ثم تركها وصرت وحدى إلى ردى عز وحلى، فتأدبه بالاستغانة

إلى ومولاى: أدعوك دعاء من لم يبق له غيرك^١ فلما عرف صدق

فقلت: لى! هذا شيء مصفى به من بين خلقك؟
قال هذه الكرامة لا يتألف إلا من أثر الفقر والفاقة وصبر عليها،
أنس بها^١

ولعل أبا يزيد في طلبه ذلك كان يتأسى بسيدنا سليمان حين قال
«أرب اغفرلى وهب لى ملكا لا ينفى لأحد من بعدى»^(١)
وإذا كان الله قد استجاب لسيدنا سليمان، فإن أبا يزيد يصرف بأن أمر وصوله مستخرج تحت قانون عام هو:

«أن الوصول إلى الله لا يتأق إلا عن طريق إظهار الفقر إلى الله
والفاقة والصبر عليها والأنس بها»^١

سر الوصول إلى الله.

ولقد تحدث أبو يزيد عن هذا السر في الوصول إلى الله غير مرة، من ذلك عن عبيد قال: قال أبو يزيد:

«طلعت الدنيا ثلاثاً ثلاثاً، يتأق يتأق لا رجعة فيها، وصرت إلى ردى وحدى، فتأدبه بالاستغانة.

إلى أدعوك دعاء من لم يبق له غيرك^١

(١) ص: ٢٥

الدعاء من قلبي مع الإيلاس متى كان أول ما أورد على من إحابة هذا
الدعاء أن أنساني نفسي بالكلية، ونصب الخلائق بين يدي مع إعراض
عنهم

طريق العبودية:

والترم أبو يزيد طريق الفقر إلى الله والعاقبة:

إنه طريق العبودية الصادقة، والإنسان لا يصل إلى الله إلا عن طريق
الذلة والانكسار، أما المتكبرون فليس لهم في الجنة مكان، ومكانهم النار
﴿أليس في جهنم مثوى للمتكبرين﴾^(١١)؟

ولقد أخرج الله إبليس من الجنة لتكبره وقال له:

﴿ما حظ منها مما يكون لك أن تتكبر فيها﴾^(١٢).

إن طريق العبودية هو الطريق إلى الله سبحانه، وسار فيه أبو يزيد
وانتهى به هذا الطريق إلى القرب:

ووصل أبو يزيد في القرب إلى درجة أن الشعور بالألوهية ملك عليه
سمعه وبصره وكيانه كله، لقد كان قائماً في الله سبحانه وعبر وهو في هذا
شعور - عن شعوره في عبارات نفسية جميلة والاستغراق في الله حقاً

(١١) الترم ٦٠

(١٢) الأعراف، ١٣

يجل الإنسان ربانياً لا يفتخر إلا بما يحبه الله، ولا يفعل إلا ما به رضا الله،
ولا يسير إلا في طريق الاتباع
كان موقفه من الله مستوقف المهين.

والله سبحانه يقول:

﴿قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم،
وأموال اقترفتوها وغمار نخشون كسادها، ومساكن ترضونها أحب إليكم
من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأق الله بأمره﴾^(١٣)
لقد طرق طارق بابي، وقال هاهنا أبو يزيد؟

صاح:

«إن أبا يزيد في طلب أبي يزيد منذ أعوام فما رآه» يشير إلى ذهابه عن
الخلق إلى الحق بلا رجوع!

وقيل له: كيف ترى الخلق فقال: به أراهم!

مقام الرجال:

وقيل لأبي يزيد: متى يبلغ الرجل مقام الرجال في هذا الأمر - قال: إذا
عرف نفسه، وقويت همته عليها!

(١٣) التوبة، ٢٤

وقد سمع أبو يزيد يقول:

«حسب المؤمن عقله أن يعلم أن بالله غنى عن عمله» وعن إبراهيم
الهروى قال سمعت أبا يزيد البسطامي يقول:

«غلطت في ابتدائي في أربعة أشياء:

نوهت أني أذكره وأعرفه، وأحبه؛ وأطلبه، فلما انتهيت رأيت ذكره سبى
ذكرى، ومعرفته سبقت معرفتى وعحبته أقدم من محبتي، وطلبه لى أولاً حتى
طلبته»

الأدب مع الله:

ومن كلامه رضى الله عنه:

مددت رجلى في محرابي فهتفت بى هاتف:

«من يجالس الملوك ينشئ له أن يجالسهم بحسن أدب»

وقال أبو يزيد: قال الله تعالى:

«إذا كان العال على عبدي الاشتغال في جعلت نعمته ولذته في ذكرى»
ورفعت الحجاب فيما بيني وبينه، وكنت مثالا بين عبيده».

الطريق:

قبل لأبي يزيد: عاذا بلغت إلى ما بلغت؟

قال: عملت أشياء:

أولها: اتخذته سبحانه معنًا، فقلت: إن لم يكفك ربك لم يكفك غيره في
السماوات والأرض! وشغلت لسانى بذكره، وبدنى بخدمته، كلما أعيت
جارحة رجعت إلى الأخرى.

الله:

وقال أبو يزيد: عرفت الله بالله، وعرفت ما دون الله بالله!

وقال: رأيت رب العزة في المنام فقال لى

«كل الناس يطلبون منى، غير أنك تطلبى»!

وقال - أبو يزيد: بك أدل عليك، وبك أصل إليك!

وقال: أمر الله العباد ونهاهم فأطاعوا، فخلق عليهم خلعا فاشتغلوا عنه
بالخلق، وإنى لا أريد من الله إلا الله! وقال: هذا فرحى بك وأنا أخافك،
فكيف فرحى بك إذا أمنتك!

وقال أبو يزيد: من سمع الكلام ليتكلم مع الناس رزقه الله فهما يكلم
به الناس، ومن سمعه ليعامل الله رزقه الله فهما يناجى به ربه.

وقال إبراهيم الهروى: سمعت أبا يزيد يقول:

«رب أفهمنى عنك، فإنى لا أفهم عنك إلا بك»!

المعارف لا يعجب:

وسأله رجل فقال:

يا أبا يزيد، المعارف يعجبه شيء عن ربك؟ فقال:

«يا مسكين من كان هو حجابك، أي شيء يعجبه؟»

وعد حدث منصور بن عبد الله قال: سمعت موسى يقول: سمعت أبي

يقول: بينما أنا قاعد خلف أبي يزيد يوماً إذ شفق شهقة ف رأيت أن شهقة

تخرق المعجب بينه وبين الله، فقلت: يا أبا يزيد رأيت عصاً، فقال

بأسكينة، وما ذاك المعجب؟

فقلت: رأيت شهقتك تخرق المعجب حق وصلت إلى الله تعالى فقال

«يا مسكين إن الشهقة الجيدة هي التي إذا بدت لم يكن لها حجاب

تخرقه»

حكيم الخلق:

وقال أبو يزيد: خلق الله الخلق لإظهار قدره ودرجاتهم لإظهار حوده،

وأماهم لإظهار قهره وكنيتهم لإظهار عظمته»

فعل الله:

وقال: التوحيد اليقين، واليقين معرفتك إن حركات الخلق وسكناتهم
فعل الله»

لخواص:

!

وقد روى عن أبي نوح عن أبي يزيد أنه قال:

«إن الله خواص من عباده، لو حببهم في الجنة عن رغبة لا استغاثوا

بالمخرج من الجنة كما يستغيث أهل النار بالمخرج من النار»

الله وحسب:

وقال أبو يزيد: إن الله تعالى أمر المباد وبناهم فأطاعوه فخلق عليهم

حده من حلمه، فاستلوا بالخلق عنه، وإن لا أريد من الله إلا الله!

وقال أبو يزيد: عند نسيان نفسي ذكرت باري النفس!

وقال: إن قد عبثاً لو بدت لم ألمة بزيتها مع حببهم عنه لضمير

هـ

وقال: عرّف الله بوز صممه، وعرفت صممه بنوره!

وقال أبو يزيد: بك أهل عليك، ومنك أصل إليك، ما أطيب راقعت
إلغام منك على خطرات القلوب، وما أحل المشي إليك بالأرواح في
طرفات الميول، اللهم ما أحسن ما يكن للمخلق كنمه، ولا بالأسـ
رعه من حيث لا تدركه المقول!

«دليل من وفق للقرب منه، وهب له سبحانه ماقد ملكه

التصوف:

وسئل أبو يزيد: متى يبلغ الرجل حد الرجال في هذا الأمر؟ فقال: إذا عرف عيوب نفسه فحينئذ يبلغ حد الرجال في هذا الأمر فهذا مبلغه، ثم يفريه الحق تعالى على قدر همته وإشرافه على نفسه الأمانة.

وقال أبو يزيد: بلغني أن الله تعالى يقول: من أتاني منقطعاً إلى جعلت له ملكاً لا يزول، ومن أتاني منقطعاً إلى جعلت إرادته في إرادته

الله:

وكان أبو يزيد يقول:

عبادة العارفين حفظ أنفاسهم مع معروفهم لأنهم تركوا في جنبه كل شيء.

ويقول: على الباب صوت وصباح واضطراب من شوق إلى صاحب الدار ومن خوفه.

وفي الدار سكون وتعظيم وهيبة وأدب لمعرفة صاحب الدار

وقال أبو يزيد: خصصت رجالاً وأكرمتهم، فأطاعوا فيما أمرهم، ولم يبلعوا ذلك إلا بك، وكانت رحمتك إليهم قبل طاعتهم لك.

رصى:

وقيل له: أليس الله يعطي العباد الجنة برضاه؟ فقال: إن أعطى عبد من عباد الله رضاه فما يرجو بقصور الجنة، وقيل له: من تأمرنا أن نصحب؟ قال: من إذا مرضت عادك، وإذا تبت قام عليك.

لصوفية لا يحبون:

وسمع أبو يزيد يقول: مررت إلى باب فلم أرهم ازدحاماً لأن أهل الدنيا حببوا بالدنيا، وأهل الآخرة شغلوا بالآخرة، والمدعين من الصوفية حببوا بالأكل والشرب والكديف، ومن فوقهم حببوا بالسماع والشواهد، نعمة الصوفية لا يحبهم شيء من هذه الأشياء فرأيتهم حيارى سكارى.

الله والقرب:

وقال أبو يزيد، أدل عليك بك، وبك أصل إليك

وقال: أكثر الناس إشارة إليه أبعدهم منه

وقال: أقرب الناس من الله أكثرهم شفقة على خلقه.

وقال أبو نصر بن المروى: سمعت أبا يزيد يقول:

«رب أفهني عنك، فإني لا أعهم عنك إلا بك»

والتوحيد:

وسئل أبو يزيد البسطامي عن التوحيد فقال:

هو اليقين، قيل له: فما اليقين؟ قال: معرفته إن حركات الخلق
وسكونهم فعل الله عز وجل لا شريك له في فعله فإذا عرفت ذلك
واستقر فيك فقد وحدته، ومعناه: أنك ترى أن الله واحد لا شريك له في
فعاله وليس يفعل فعاله أحد.

أقربهم من الله:

وسمعوا أبا يزيد يوماً يقول: أقربهم من الله وسعهم على خلقه
ويقول أبو عيسى بن آدم بن أخى أبو يزيد قدس الله روحه أنه سمع
رجلاً يقول: الله أكبر.

فقال: ما معنى الله أكبر؟

فقال الرجل: أكبر من كل شيء..

فقال له: ويحك، حددته، أو كان معه شيء فيكون أكبر منه.

فقال له: ما معنى الله أكبر؟

فقال أبو يزيد: أكبر من أن يقاس بالإنسان، أو يدخل تحت القياس،

تدركه الحواس.

تكبير وتسييح:

وكان تكبير أبي يزيد - رضى الله عنه - إذا كبر أن ذر، غفقت الملوك
برأها وبهاك مفتوح لمن دعاك يا الله!

وكان تسييحه: سبحان من علا فتعالى، سبحان من أعلى ومن قربه
من دنو الأدنى، سبحان خالق النور، شكراً لخلق النور، سبحان خالق
النور، حكماً لخالق النور، سبحان خالق النور، وبحمده، سبحان خالق
النور وبحمده، سبحان خالق النور عز وجل حلاً.

الوصول عن طريق الأسماء

ونختم هذا الفصل بما قال أبو يزيد عن أسماء الله تعالى:

يقول أبو يزيد الأسماء كلها أسماء الصفات، والله اسم الذات، الاسم
علامة المعنى، والمعنى علامة تعرف بها الذات، والأسماء علامة تعرف بها
الصفات، والصفات علامة تعرف بها الذات فمن أقر بالصفات ولم يقر
بالذات فليس بمسلم، ومن أقر بالذات قبل الصفات فيسمى مسلماً ويجب
أن يقر بالصفات، والدليل على ذلك: لو أن رجلاً قال لا إله إلا الرحمن
لا إله إلا الرحيم ثم يأتى على الأسماء كلها، لا يكون مسلماً حتى
يقول: لا إله إلا الله. ومن أقر بهذا الاسم الواحد وهو الله، فالأسماء كلها
حلق في هذا الاسم وخارج منها، يخرج من هذا الاسم معنى الأسماء

بها، وتدخل في هذا الاسم وجوه الأسماء، ولا يحتاج هذا الاسم من اسمه، والدليل على ذلك أن الله تعالى تفرد بهذا الاسم دون خلقه وأنه لم يخلق في أسمائه كلها سوى هذا الاسم ويجوز أن يسمى الرجل عدد ورحباً وكرماً على معاني هذه الأسماء، ولا يجوز أن يسمى الرجل «الله» فإنه اسمه: لا إله إلا الله، وما دعا أحد الله باسم من الأسماء كلها إلا ولنفسه في ذلك نصيب، إلا «الله» فإن ذلك حظ الله من عبده.. ومعنى ذلك أن من طالب ربه برحمته فيقول، يا رحيم، ومن طالبه بكرمه فيقول، يا كريم، ومن طالبه بعبودته فيقول: يا جواد.. فكل اسم تحت معنى يدعو إلى نصيب الناس من أمر الدين والدنيا إلا «الله».. فإن هذا الاسم يدعو إلى وحدانية الله تعالى، وليس للنفس في هذا نصيب.. ومن أراد من الله عطاء يدعو الله بأسماء الصفات، ومن أراد من ذات الله يدعو الله بأسماء بذات.

الفصل الثامن

أبو يزيد والتَّصَوُّف

إن اليقين الذي لا شك فيه هو أن الإنسان في هذه الدنيا إلى انتهاء، وأن الحق الذي لا مزية فيه أن أجل الله أت لا ماص،
لقد حدد سبحانه الآجال

فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون
والمؤمن يعرف أن في عقد إيمانه أن الحياة الدنيا قايمة، وقد تكون ساعات، وقد تكون شهوراً أو سنين، ولكنها مهما طالَّت فإنها إلى زوال
ويعرف المؤمنون قول الله تعالى

﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْشَرُ﴾^١

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم

«تلى بالموت عبرة»

ويعرف المؤمنون أن الإنسان مجزئ بقسله: إن خيرًا فخير، وإن شرًا
فسر، وأن الأمر كما يقول الله تعالى:

﴿وكل إنسان ألغناه طائره في عنقه، ونخرج له يوم القيامة كتابًا يذ
مشورًا، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا﴾^(١)
وأنه:

﴿ومن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾
ومن أدق أوصاف الشعور الصادق تجاه كلمة الله الأخيرة هذه:
حينما سمعها أحد الصحابة قال:
﴿حسبي ألا أسمع غيرها﴾

ويعرف المؤمنون أن العبر إما روضة من رياض الجنة وإما حفرة من
حفر النار.

ويعرف المؤمنون - مع كل ذلك - أن نعم الله على الإنسان التي
لا تحصى ولا تعد تتطلب الشكر: وشكرها إنما هو استعمالها في مرضاة
سبحانه، وشكرها - حينما يؤدى - يديها ويزيدها

﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾

(١) الإسراء: ١٢

(٢) إبراهيم: ٧

وكان من الواجب - إن - أن يسير المؤمنون في الطريق الذي رسمه
الله تعالى للمؤمنين، وأخذ العهد عليهم في عقد إيمان أن يسيروا فيه،
وخصوصًا لأنهم يعلمون

١ - أن هذا الطريق الذي رسمه سبحانه للأفراد ورسمه للجماعات
هو طريق معصوم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وما دام
طريقًا معصومًا فإنه لا يتأتى لعاقل أن يتركه ليسير في طريق خطئ البشر
الذين ليسوا بمعصومين

٢ - وبما لا شك فيه أن الانحراف عن طريق الله إلى الطريق
البشرى خلل في الإيمان، وقد وصف الله الذين يسبون فيه بأنفسهم
ما يوصف به الإنسان، إنه سبحانه يقول في حق الذين لا يحكمون
بما أنزل في أنفسهم وفي أسرهم وفي مجتمعاتهم

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾^(١)

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾^(٢)

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾^(٣)

ويقول سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم:

﴿ولا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في

(١) المائدة: ٤٤

(٢) المائدة: ٤٧

(٣) المائدة: ٤٥

وكانوا أقرب الناس من درجة النيرة، وفي ذلك يقول رسول الله صلى

الله عليه وسلم هذه الكلمات البهيمة:

وأقرب الناس من درجة النيرة أهل العلم وأهل الجهاد:

أما أهل العلم فدلو الناس على ما جاءت به الرسل، وأما أهل الجهاد
فماعدوا بأسانفهم على ما جاءت به الرسل»

وساروا - هؤلاء العلماء - ماصحين للحكام ولرعية. كانوا مصابحين

: هداية للأربساط الحاكمة، ومصابحين هداية للشعب وكانت مهمتهم بيان

شرح الله طوله وأولئك، وقد نفخوا أبنيتهم من دنيا الملوك وأموالهم،
وعاشوا من كسب أبيهم، فلم يبق في وجهه حريتهم مال الملوك ولا دنياههم،

وكانوا بذلك مثلاً كريمة للإخلاص لله ولرسوله، وقد قاموا بالدعوة خير
قام، وحققوا ما رسه الله سبحانه للدعاة، وبيته لهم في القرآن الكريم
ومن ذلك ما يقوله سبحانه:

«وقل هذه سبيل أدعو إلى الله على بهيرة أنا ومن اتبعني»^(١٦)

والبهيرة هي التردد من العلم الرباني.

فتردوا من أجل ذلك بالعلم قرآناً وسنة، فكان منهم أمه

زعماء المؤمنين في الحديث، وتبع العلم في الفجر واليسر

كان منهم كبار العلماء..

(١٦) يوسف ٨

بمسهم حرجاً ما قصبت ويسلموا تسلياً»^(١٧)

حكيم رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته، وتحكيم سنته بعد

انتقاله إلى الرحمن الأعلى، وتحكيم رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته

وبعد عاتيه هو تحكيم الرعي المنزل المعصوم من قبل الله تعالى

وسارت الأمور على هذا الوضع - رعاية حقوق الله في النفس والأسرة

والمجتمع - فترة من الزمن..

ثم بدأ نوع من الانفصال بين الممالك الخليفة والممالك، الممالك: ملكاً أو

رئيس جمهورية، وأرخ هذا النوع من الانفصال - وهو لم يكن ثأماً - نوعاً

من التراخي في تطبيق الدين في النفس والأسرة والمجتمع، فذهب طائفة من

العلماء للتبشير والوعظ والإرشاد حتى تستمر راية الدين حفاظة في النفس

والأسرة والمجتمع، وكان هؤلاء العلماء يمثل فيهم حقيقة، الخلافة لرسول

الله صلى الله عليه وسلم، وصدق فيهم قوله

«وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً

وزيلاً وورثوا العلم، فمن أخذ به حفظ دينه»

وهذه الورثة هي ورثة الدعوة وورثة الهداية.

ولقد استدرجوا النيرة بين جبيهم كما يقول رسول الله صلى الله عليه

وسلم، وساروا بنورها مهدين هادين في مختلف الأجواء.

(١٧) النساء: ٦٥

لا بد من العلم بمرجع الدعوة:

ولا بد من إخلاص لله وحده

ولا بد من تعرض لحمل بحسب مقتضى حال المدعوين

وهذه لصمات كلها سنكملها دعاء لإسلامه لأولئك

ولكن كثير من الحكام وكثيراً جداً من بطانهم، بل بعض أولئك

الغريب من ذوي السموات والبركات كانوا يفتقرون درعاً هؤلاء المدعوين
وإنه كما يقول سبحانه:

﴿وَرَكَّادًا جَمْعًا لِّكُلِّ بَنِي عَدُوٍّ مِّنْ لِّمُحْرِمِينَ﴾^(١)

هؤلاء الأعداء من المجرمين، ماذا كانت ترتفعهم التي توحدهم؟

وتقودهم؟ إنها شهواتهم، لشرغفون الذين تحدث عنهم القرآن كـ

بأمرهم الدعاء بالعضية فيأتون الرذيلة، يقول سبحانه:

﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُعْرِضِينَ﴾^(٢)

وقال:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا قَالَ:

كَافِرُونَ﴾^(٣)

(٢) سورة

(١) الفرقان: ٣٩

(٣) هود: ١١٦

رب رسمه الله للدعاة أن تكون خشيتهم له وحده، يقول سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَحْتَسِبُونَ أَعِدَّ اللَّهُ لَآئِلَ اللَّهِ وَلَكِنَّ

بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾^(١)

كفى به حسيباً سبحانه - لن يخشاه ولا يحسب إلا هو تعالى

وفي هذا يقول: أبو ريد هذه الكلمة لنفسه «من ادعى إحصاء في
ظهار على امتثال به يحتاج أن يكون معه صدق «للهمدانة» وهو يساق

في هذا مع آية القرآنية الكريمة:

وَأَمْرُ الثَّالِثِ، مع العلم والإخلاص الذي يشمل في خشية الله وحده

هو أسلوب الدعوة.

﴿وَأَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالنُّعْوَطِ الْحَسَنَةِ وَحَادِثِهِمْ بِالْحَقِّ هِيَ

أَحْسَنُ﴾^(٢)

ويقول الله تعالى لموسى وأخيه هارون عليها السلام حينما أرسلها إلى

فرعون:

﴿وَقُولَا لَهُ مَوْلا لَنَا لَئِن لَّمْ يَئْتِنَا سِدْرٌ مِّنْ رَبِّنَا يُبْدِلْ

(١) الأعراف: ٢٩

(٢) النمل: ١٧٥

(٣) طه: ٤٤

ولكن متى في الجو طائفة من العلماء حافطون على أمر الله ورسوله علمه
نفسه وحملوا الدعوة ولن ينجلي الله الماء من دعاة إليه، ويقول رسول الله
صلى الله عليه وسلم: «ألا تزال طائفة من أمتي طاهرين على الحق
لا يضرهم من حذرهم، ولا من حالهم إلى أن تقوم الساعة» وهو حديث
بلا النقص أملاً، ويسلك الأصل في 'النفس' والصفة بأن الحق يجعله طائفة عن
طائفة إلى أن تقوم الساعة.

وهو الله سبحانه أن تقوم من بين هذه الطائفة صفوة هي صفوة
لصفوة تجردت إلى الله سبحانه في ليله، وفي القول، وفي العمل، فكانت
إخلاصاً لا يشوبه شقاق، وألوا الله قولهم وطرقوا بابه عن طريق الميمنية
مفتح لهم، قبلهم في رحابه، وأثار قلوبهم بورد، أحسبهم وأحسره ورضى عنهم
ورسولهم، لم تغتهم الدنيا بزحرفها، ولم يهرقه قصور هارون لرسيد،
ولا رياض المؤمنين، ولا مواكب البرامكة، لقد كان هدفهم الله تعالى
﴿وَأَن إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾^(١١)

وقدمتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم:
هلقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم
الآخر وذكر الله كثيراً.

حاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا، ووزنوها قبل أن ينصب لهم ميزان
الحساب يوم العرض الأكبر.

(١١) الحج: ٤٢

ولما رأوا أن تلك قرية أمرنا مترفيها فأسرناهم بالمقصية فأبوا^(١)
«أنفسهم» فيها فتح عليها القول فدمرناها تدميراً^(٢).

وأخذ الملوكة، وأخذت بطائنتهم تفكر في كيفية التخلص من هؤلاء
'العلماء، وكانت الطرق متعددة

طريق الرغبة.

لقد استعمل الحكام طريق الرغبة، فكان المغنبي وكان التتكيل، ولكن
ذلك لم يكن حاسماً بالنسبة لكثير من العلماء الذين آثروا الله ورسوله

طريق الرغبة:

ولما رأى الملوكة ذلك اتخذوا مع طريق الرغبة - طريق الرغبة فكانت
المغنبي، وكان المال، وكانت الدنيا، ومن لم تنته الرغبة أطمعته الرغبة،
ومن كان فقيراً جذبته المال ومن كان غنياً جذبته الرياسة، وجذبته
المناصب، وتعلم العلم كثير من الناس من لا هم لهم إلا دنياهم، وساروا
- يعلمهم - في ركاب الأمراء والملوك وتقلب السطة على الأشراف،
وتغلبت الدمامة على الإخلاص، وكذلك كان أمر التاريخ في كل المقضرات
والمول.

(١) الإسراء: ١٦

﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون - إلا من أتى الله بقلب سليم﴾^(١)

إنهم الصوفية!

ما هو التصوف؟ وما هي سمات الصوفية؟

إن أبا يزيد يحدثنا في هذا حديث تجربة.

سأل رجل أبا يزيد عن التصوف فقال:

طرح النفس في العبودية، وتعلق القلب بالربوبية، واستعمال كل حلق سني، والنظر إلى الله بالكلية! وهذا تعريف للتصوف، ورسم لصفات الصوفية من حيث جو نفوسهم وقلوبهم وأخلاقهم، وغايتهم الأخيرة هي الله!

وقال أبو زيد مبيناً مكانة الصوفية:

«الصوفية في حجر الحق».

يعني بذلك أنكم تنغمسون دائماً فيها يجب، بعيدون باستمرار عما ينهى

عنه

وبدأ طريق الصوفية حسياً يرى أبو يزيد، وحسبها يرى من كل الصوفية - بالتوبة الصادقة.

(١) النمر: ٨٨٤٨٧

والتوبة ألوان.

منها توبة من المعاصي وهي عرض، وبعض الناس يظن أنها التوبة لا غيرها فلا يؤبه إلا إذا كانت معصية.

ولكن الأمر غير ما يظن هؤلاء، فهناك التوبة من الغفلة وهناك توبة العبودية، وتوبة الطاعة

ويقول أبو يزيد:

«توبة المعصية واحدة، وتوبة الطاعة ألف توبة» وأبو يزيد في هذا يتابع القرآن الكريم، يقول سبحانه:

﴿إن الله يحب التوابين﴾^(١)

إنه سبحانه لم يقل: إن الله يحب التائبين، وإنما قال (التوابين) أي الذين يكثرون من التوبة، يتوبون حيث لا ذنب، يتوبون توبة عبادة، وتوبة عبودية!

وإذا صدقت التوبة استبعت المجاهدة، وقد جاهد أبو يزيد نفسه جهاداً يرضى الله ورسوله، إنه يقول

«أقمت عشرين سنة، أكابد المجاهدة، وأكافح المراقبة ولا أجزؤ أن ألبس مرقعة، ولا أنظاها بالطريق».

(١) البقرة: ٢٢٦

ومن المجاهدة أن يركز الإنسان كيانه في اتجاه واحد هو الاتجاه نحو
ربه ! إنه يقول:

«طوبى لمن كان همه هماً واحداً، ولم يشغل قلبه بـ رأت عيناه، وسحب

دعاه

من عرف الله في الطريق:

«ومن عرف الله فإنه يزهد في كل شيء يشغله عنه، وإذا صدقت الثروة
دعوت إلى العبادة والعبودية، وأن العبادة إذا لم تتسم بالعبودية فإنها
لا تكون كاملة وللعبودية علامات هي من علامات الصوفية يقول
أبو يزيد: من لزم العبودية لزمه اثنان:

«يأخذه الخوف من ذنبه، ويفارقه العجب من عمله»

ويقول

«لا يكون العبد عاملاً على معنى العبودية حتى يكون إدراكه واضحاً
وسهونه تابعة لمحبة الله».

ولقد سئل أبو يزيد: بما نالوا المعرفة؟

فقال:

«بتصحيح ما لهم، والوقوف على ماله».

١١٢

ويصف كاتب المقالة عن أبي يزيد - في دائرة المعارف الإسلامية شعور
أبي يزيد في رحلة المجاهدة هذه فيقول:

«وكان شعوره بجلال الله يملأ شغاب نفسه مقترناً بشعور من الخشوع
والخشية لله حتى ليحس في حضرته بأنه زنديق يكاد يجم بإلقاء زئار
المجوس

وكان شوقه ينصرف إلى مجاهدة نفسه بمجاهدة دائية أو على حد تعبيره

«أنا حداد نفسي» حتى يحررها من جميع المحجب التي تحول بينه وبين
الوصول إلى الله.

وهو يصف هذه المجاهدة وصفاً ممتازاً جداً يكشف فيه عن نفسه بأقوال
فيها تشبهات غاية في العظمة، فالديا والزهو، والعبادات، والكرامات،
والذكر، بل المقامات، ليست في نظره غير حجب تحجبه عن الله. ولقد
استفاض أبو يزيد في بيان سمات الصوفي الذي يسميه بالعارف، والعارف
هو الصوفي، وإذا ما وصل السالك إلى التوحيد الحق فقد أصبح صوفياً،
وأصبح عارفاً أما إذا لم يصل إلى التوحيد الحق فإنه متصوف أو سالك، أو
مريد، وكلها تتقارب في المعنى

المعرفة أقسام:

والمعرفة في يرى أبو يزيد أقسام:

معرفة العوام، ومعرفة الخواص، ومعرفة خواص الخواص. فمعرفة

لغوام معرفة العبودية، ومعرفة الربوبية، ومعرفة الطاعة، ومعرفة المعصية، ومعرفة العدو والنفس. ومعرفة الخواص معرفة الإجلال، والعظمة، ومعرفة إسان والمنة، ومعرفة التوفيق

وأما معرفة خاص الخاص : فمعرفة الأنس والمناجاة، ومعرفة اللطف ولتطلبه، ثم معرفة القلب، ثم معرفة السر. ولا تتنافى كل واحدة من هذه الأنواع مع الأخرى ولا تتعارض معها وجميعها ضرورية للسالك وللعارف

سمات الصوفي :

وعن سمات الصوفي يقول أبو يزيد :

« من ترك قراءة القرآن، والتشبه بالجماعات، وحضور الجنائز وعادة المرسى، وادعى هذا الشأن فهو مدع ».

علامات العارف :

ويستفيض أبو يزيد في بيان علامات العارف، ومن ذلك أنه قيل له

ما أعظم آيات العارف ؟

فقال : « ان تراه يؤكلك ويشاركك ويبيعك وقلبه في ملكوت قدس، هذا أعظم الآيات ».

وقال إبراهيم المروري : سمعت أبا يزيد البسطامي يقول وسئل ما علامة العارف ؟ قال :

« ألا يفتر من ذكره، ولا يمل من حقه، ولا يستأنس بعيره »

وقال أبو يزيد :

« علامة العارف خمسة أشياء ».

أوله : يقيم على باب ربه لا يرجع عن باب له

ويقول إليه لا يلتصق إلى شيء يحبه عنه

ويكون دورانه وسيرانه في مجرة أنس ربه وحول مناجاته لا يرضى من نفسه أن يشتغل بشيء دون الله عز وجل، ويكون حرره من الخلق إلى الخالق، ومن جميع الأسباب إلى ولي الأسباب.

وقال أبو يزيد : « علامة العارف أن يكون طعامه ما وجد، ومبितه حيث أدرك، وشغله بربه ».

وقال أبو يزيد :

« أدنى ما يجب على العارف أن يجب له ما قد ملكه » !

وخبره

« لا يشكو قلب العارف، وإن قطع بالمقراض، ولا يأس منه البتة. ولا يأمن من مكره وإن نودي بالغفران، وحق لو مشى على الماء والهواء، ولا يستريح من كده ولو جلس على السرير ولا يعمل عنه ولو كان في السوق، ولا يطمئن بدونه في الملك في الساء »

«إذا سكت العارف يريد ألا ينطق إلا عند معروفة، وإذا غمض يريد ألا يفتح إلا عند لقائه، وإذا وضع رأسه على دكتته يريد ألا يرفع إلا في الصور من شدة الأنس به» ومن الأمور التي تدعو إلى التأمل أن كبار الصوفية يصلون إلى الولاية التي لا تنقيد بالصفة

ولقد سئل الشبلي رضي الله عنه عن الصوفية: لما سموا بهذا الاسم فقال: لشائبة بقيت فيهم من نفوسهم، ولو ذلك لما لانت بهم الأسماء، ولما التصقت بهم

وفي هذا المعنى وحوله يتحدث أبو يزيد:

لقد قيل له: كيف أصبحت؟ قال:

«لا صباح لي ولا مساء، إنما الصباح والمساء لمن تقيد بالصفة ولا صمد لي

وكان رضي الله عنه يقول: إذا سئل عن المعرفة،

«للمخلق أحوال، ولا حال للعارف لأنه محيى رسومه، ومفتى حور» هوية غيره، وغيب آثاره لآثار غيره» وسئل - أبو يزيد - عن درجة العارف فقال:

«ليس هناك مرجته بل أعلى فائدة العارف وجود ربه» وقال أبو يزيد

«ضحكت زماناً، وبكيت زماناً، وأنا الآن لأضحك ولا أبكي».

وقال:

«العارف لا يكدره شيء، ويصفو له كل شيء».

وقال:

«نسيان النفس ذكر بارئ النسم»

ويقول سادتنا الصوفية:

«الطرق إلى الله كثفوس بنى آدم»

ويحذرون بذلك: أن الطرق إلى الله كثيرة متعددة

ويقول تكلمة لذلك: «والتوحيد واحد»

أى أن الهدف الذى يحسون إليه إنما هو التوحيد.

ويقولون متناسقين بعضهم مع بعض:

«بلوّه معرفته... ونهايته توحيده».

ويقول أبو يزيد:

«إن أهل المعرفة بالله اجتمعوا في الأصول على معرفة الواحد ثم تفاوتوا بعد اجتماعهم على مراد الله فيهم».

ونختم هذا الفصل بهذه الكلمة المشرقة لأبي يزيد، إنه يقول:

«يستزيد أبو يزيد، ولا مريد على التوحيد»!!!

الفصل التاسع

الصّوفية والتوكل على الله

إننا في هذا الفصل نذكر رأى أبى يزيد فى التوكل ولكننا نتحدث
مستفيضين فى معنى التوكل فى القرآن وفى معناه عند الصوفية على وجه
لعموم؛ وذلك أننا حينما نذكر معنى التوكل فى الجوى لقرائى وفى الجوى
الصوفى، فإنما نشرح معنى التوكل عند أبى يزيد.

لقد كان أبو يزيد مجاهدًا بالسيف فى ميادين القتال، وكان مجاهدًا فى
لمجتمع داعيًا إلى الله، وكان مجاهدًا لنفسه حتى تنزكى، فهل يتناقض كل ذلك
- خصوصًا الجهاد بالسيف - مع التوكل؟

وما هو معنى التوكل فى الحقيقة؟

يقول أبو يزيد

«حبك من التوكل ألا ترى لك ماصرًا غيره. ولا برزقًا غيره،
ولا لعملك شاهدًا غيره.

وما يلي كله شرح لهذه الكلمات:

يمكننا أن نعرف الإسلام بمجموعة من التعاريف تتناسق وتأنس، ويشرح بعضها بعضاً.

يمكننا أن نعرفه أولاً بهذا التعريف الجميل الذي عرفه به رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما سئل عن الإسلام ما هو؟ فقال «أن يسلم الله قلبك. وأن يسلم المسلمون من لسانك ويذكرك». ويمكننا أن نعرفه بالتوحيد، والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾^(١)

ويمكننا أن نعرفه بأنه المهوم لقوله تعالى: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾.

ويحدث أحد رجال الفكر الإسلامى عن القرآن الكريم فيقول إن سره في فاتحته، وسر القابعة: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ ويمكن أن نعرف الإسلام بأنه إسلام الوجه لله، والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن﴾^(٢)

(١) الأبيات : ٢٥

(٢) النساء : ١٢٥

وكل هذه التعريفات سبق عنها التوكل، بل إن التوكل على الله من أجزائها لا ينفك عنها..

لقد أمر الله سبحانه وتعالى به، فجاءه منه صفة لا تنمك عن الإيماء

﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾^(٣)

ويأمر به سبحانه أمراً مطلقاً كل مؤمن فيقول:

﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾^(٤)

وللتوكل صور كثيرة منها صورة التفويض:

وصورة التفويض هذه يحدث عنها القرآن الكريم بمناسبة قصة د. مؤمن صادق الإيمان، وقف ناصحاً في وجه الطغيان والجبروت، يدعو الله، ويشر بالتعاليم الصادقة وينذر ويهدد بالعقاب في أسلوب لا يخشى في الله لومة لائم.

تلك هي قصة مؤمن ال فرعون

ونذكر قصته متحدثين عن أطرافها

لقد وقف فرعون - في قومه - قائلاً:

(١) يوسف : ٦٧

(٢) التوبة : ٥١

﴿وَنِي أَقْتَل مُوسَى﴾.

فَقَالَ مُوسَى:

﴿لَا عُدَّتْ بَرِي وَرِيكُم مِّنْ كُلِّ مَتَكْبَرٍ لَا يَوْمُ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾
وعندئذ وقف مؤمن آل فرعون ، وكان يكتنم إيمانه قائلاً.

﴿انصَلُّونَ وَجَلَا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ، وَإِنْ يَكُ نَادِيًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ، وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ لِّذَى يَعْذُكُمُ﴾
وقد أنذركم بعذاب فإن هذا العذاب لابد أن يصيبكم..

سَمَّ عَال لَّهُمْ فِي مَنْطَقٍ قَوِي:

﴿يَا مَعْزُومَ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾

وهنا رأى فرعون أن الموقف قد تأزم، وأنه لابد من أن يتدخل، فقال
لعمري

﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

وسارع مؤمن آل فرعون يستفيض في الحديث، مهدداً ومنذراً، في أسلوب منطقي قوي، وكان بما قال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ، يَأْقُومُ إِعْمَا هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا مَتَاعَ
وَبِالْآخِرَةِ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ مِنْ عَمَلٍ سَيِّئَةٍ فَلَا يَجْزِي إِلَّا مِثْلُهَا، وَمَنْ

عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يردفون فيها
بغير حساب﴾..

ثم انتهى في الحديث بأن قال:

﴿فَسْتَذَكِّرُونَ مَا أَقُولَ لَكُمْ وَأَفُوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنْ اللَّهُ بِصِيرٍ
بِالْعِبَادِ﴾

وكانت النتيجة ما قصه الله سبحانه بقوله:

﴿فَوَقَّاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكُرُوا وَحَقَّى بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾^(١)

ومن كل ما تقدم ننتهي كما بدأنا بالقول بأن التوكل جره لا يتجزأ من
الإيمان، والصورة المثلى فيه هي صورة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي
كان إمام المتوكلين، وكان إمام المناصين.

ولقد سئل يحيى بن معاذ-وهو من أئمة الصوفية- متى يكون الرجل
متوكلاً

فقال : إذا رضى بالله وكليلاً.

ويتحدث القرآن عن بعض الظروف التي ظهر فيها أن المؤمنين
لصادقين هم الذين يتخذون الله وكليلاً، يقول سبحانه وتعالى عن المؤمنين
في غرة أحد:

(١) عامر ٢٦-٢٥

فهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزاد
في قلوبهم حسينا الله ونعم الوكيل^(١).

مد ١٠٠ التبيحة؟

إياها مد ١٠٠ الله سبحانه عنها بقوله:

﴿عائذ بالله من الله وفصل لم ينسهم سوء واتبعوا رضوان الله
والله ذو عذاب عظيم﴾^(٢)

ومن هذا قوله؟ إياهم.

﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح﴾

ما هي منهم؟

إن مشركي مكة لما أصابوا من المسلمين يوم أحد أخذوا في العودة إلى
مكة، فلما استمروا في سيرهم ندموا:

لم لم يتمموا على أهل المدينة ويحملوها الفيلة؟

وكان من كلامهم: لا محمدا قتلتم، ولا الكواعب أردفتم، بنسأ صنعتم
ارجعوا وأرادوا العودة إلى المدينة.

(١) آل عمران ١٧٣

(٢) آل عمران ١٧٤

ولكن أبا سفيان لم ينس يوم بدر ولم ينس أن الفئة القليلة يوم بدر
علبت ثلاثة أمثالها مع وفرة العدة في الكثير، فأحب أولا أن يعجم عود
لمسلمين، وكان من المصادفات أن مر به ركب من عبد القيس فقال: أين
ريدون؟ قالوا: نريد المدينة. قال: ولم؟ قالوا: نريد لميرة. قال: فهل
نسم ميلفون عني محمدا رسالة أرسدكم بها إليه، وأحمل هذه لكم غدا زبيبا
بمكاظ إذا وافقتموه؟ قالوا نعم. قال إذا وافقتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا
السير إليه وإلى أصحابه لتستأصل بقينهم. فمر الركب برسول الله صلى
الله عليه وسلم وهو يخمره الأسد، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان
وأصحابه، فقالوا: حسينا الله ونعم الوكيل

قالوا ذلك واستعدوا مباشرة للقتال من جديد، من كان مجروحا ضمد
حرحه، ومن كان قد كل سيفه أحدد، من كان أمره متفرقا في نفسه أو
ماله أصبح أمره جديدا... واستعدوا لخروج المعركة بكل ما يملكون من
وسائل.

وكان أبر سفيان يطار بجة ربه وما تحذره من صدى، ورجع
واحد من وفد عبد القيس يقول لأبي سفيان:

لقد رأيتهم كالأسد الموتورة شربة عن الأخذ بالثأر.

ولما سمع أبو سفيان ذلك أخذ في عريته مكة طلبا للسلامة والتوكل
- إذن - والمتوكلون يتخفون لأب - يستعدون أكمل ما يكون
لاستعداد، وأدق ما يكون الاستعداد.

بعد فإن الإمام لقشيري - من أئمة الصوفية - يقول :
« علم أن التوكل محلله القلب، والحركة بالظاهر لا تنافي التوكل بالقلب
يعني تحقق العبد أن التقدير من قبل الله تعالى، فإن تعسر شيء فيتعديره،
وإن اتفق شيء فيتيسره. »

تقدير من قبل الله تعالى : وإذا آمن الإنسان بذلك - ولا بد أن يؤمن
به - فهو متوكل

والتوكل يتخذ الأسباب اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم
ويتلون التوكل بحسب درجاته، ويأخذ اسماً تبعاً لدرجته، فيكون :
« توكلًا » ويكون « تسليًا »، ويكون « تفويضًا ».

والتوكل بداية هذا المقام الروحي، والتسليم واسطة، والتفويض نهاية.
إن كان للثقة في الله نهاية

ومع ذلك، فإن كلمة « التوكل » تطلق على كل درجاته، وتستعمل في كل
بواعه

ومن التوكل الذي يتلون التسليم ما يحدثنا به القرآن الكريم في
قوله تعالى :

﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق
نه ورسوله، وما زادهم إلا إيمانًا وتسليًا ﴾^(١).

لقد زادتهم رؤية لأحزاب - الجيوش الجاررة التي أتت لتهدم المدينة
وتقتل من فيها - إيمانًا وتسليًا.

ماذا فعلوا؟.. لقد سهروا ليلاً، وأقاموا نهارًا من وراء الحندق يرقبون
حركات العدو، ويستعدون لكل شأن من شئونه لقد لبسوا دروعهم،
وتسحرو سيوفهم، وقواسمهم، وسهامهم، لقد حكموا كل أمر من أمور
الحرب بحسب طفتهم... ولكن الأمر فيها يسلمون به، لله كله لأنه سبحانه
في إيمانهم.

إليه يرجع الأمر كله

وقوله تعالى :

﴿ وما زادهم إلا إيمانًا وتسليًا ﴾

يعني إيمانًا قلبيًا، وتسليًا معنويًا

وإن من الملاحظات التي لا تغفى على قارئ القرآن أن آية الأحزاب
... سقفا مباشرة قوله تعالى :

﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم
الآخر وذكر الله كثيرًا ﴾.

ولقد تابع المؤمنون الرسول صلى الله عليه وسلم في توكله، وانبعوه
مسلمين في استعداده وتأهيه، لقد اتفقوه أسوة.

ويقول الإمام سهل بن عبد الله - من أئمة التصوف - هذه الكلمات الجملة حقا، الصادقة حقا:

«التوكل حال النبي صلى الله عليه وسلم، والكسب سنته، فمن بقى على حاله فلا يترك سنته».

ويقول:

«من طعن في الحركة فقد طعن في السنة، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان».

أما كيف عرف سهل نفسه التوكل؟ فإنه قال:

التوكل: الاسترسال مع الله تعالى على ما يريد.

وهي كلمة نفيسة، الاسترسال مع الله على ما يريد في كل ما أراد سبحانه: في الجهاد، في الضرب في الأرض طلباً للرزق، في التزود من العلم، في حسن الخلق.

إنه الاسترسال مع الله على ما يريد، وهذا يقتضى أن يسكن الإنسان إلى النتائج بعد أن يكون قد اتخذ الأسباب بقدر طاقته، ويقتضى أمراً آخر هو: الابتعاد عن كل مالا يريد سبحانه.

وبعد: فإن هذا التعريف لسهل رضى الله عنه يتناسق مع تعريف الإمام حمدون القصار - من كبار الصوفية - حيث سئل عن التوكل فقال:

التوكل هو الاعتصام بالله تعالى.

إنه الاعتصام بالله تعالى في اتباع أوامره، وهو الاعتصام بالله تعالى في اجتناب نواهيه، وهو الاعتصام بالله تعالى في الحركة وهو الاعتصام بالله في النتائج.. أى السكون إليه في كل ذلك مع السكينة فيها يتعلق بالنتائج.

وبعد: فإنه إذ توكل الإنسان على الله سبحانه، فإن ثمره ذلك أمران:

الأمر الأول: هو كفاية الله للمتوكل، يقول سبحانه:

﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾^(١).

الأمر الثانى: هو حب الله له، يقول سبحانه:

﴿إن الله يحب المتوكلين﴾.

(١) الطلاق: ٣

الفصل العاشر

أبو يزيد والحب

الذين يدعون المحبة لله ورسوله كثيرون، والصادقون منهم قليلون. وقد كان أبو يزيد من هذا القليل النادر، لأنه كان يسير على السق لقرآني في حب الله ورسوله.

ولقد وضع القرآن مقياساً لهذا الحب، يقول تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾^(١).

إن الحب في الجوار الإسلامي اتباع.

اتباع في العقيدة، واتباع في السلوك.

وقد وجد قوم تركوا العمل، وقالوا: نحن نحسن الظن بالله، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم كذّبوا، وقال صلى الله عليه وسلم.

(١) آل عمران: ٣١

« لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل ».

ومن أحمل ما كتب الكاتبون في الحب ما كتبه أبو يزيد شارحاً الصورة
لإسلامية في سموها وجلالها وجلالها عن حب الله سبحانه فقد حدث
إبراهيم بن محمد الخواص قال: سمعت أبا يزيد البسطامي يقول
«ظاهر الصديق وباطنه سواء»

ولقد اشترك الإيمان والحب في قلب الصديق، فكلما ازداد الإيمان ازداد
الحب في الله، قال الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾^(١).

فإذا مال ذلك رمى قوس الدنيا بالفرقة، وقطع حلقة الطمع بسكين
الإيثار، وألجم نفسه بلجام الخوف، وساقها بسوط الرجاء، ولبس قميص
الصبر، وتردى برداء التواضع، واستوى عنده المنع والعطاء، والشدة
والرحاء، والذم والشام، مسقط من ظاهره وباطنه التصنع، فليس عنده فرق
بين الدائق والدنيار، لعلمه أنه لو يودك له في الدائق كان أعظم بركة من
الدنيار!

فإذا كانت هذه حاله قالت الجنة اللهم أدخل هذا العبد (بين) ساكني،
فكانت الجنة طالبة له دونه!

(١) البقرة: ١٧٧

وإذا رأته النار على هذه الحالة علمت أن بوره نطمى شررها فتعودت
لنار حته!

فلو عرج بذلك العبد أعلى عليين لكان شكره ذلك الشكر الذي كان
في أعظم البلاء!

ولو أنزله الله من أعلى العليين فأسكنه الدرك الأسفل من النار لكان
شكره ذلك الشكر الذي كان في أعلى العليين.

ولأبي يزيد كلمات في غاية الجمال والنفاسة تعبر عن شعور الحب عنده
متمشية مع الجوهر القرآني الكريم، إنه يقول:

«لا يكون العبد محباً لمخالقه حتى يبذل نفسه لله في طلب مرضاته سرّاً
وعلانية، ويعلم الله من قلبه أنه لا يريد إلا هو».

وقال:

«من أُرده وفقه، ومن أحبه قربه»

ويقول

«فحبك فرض كيف لي بأدائه ولست لعرض ماحييت تبارك»

ويقول - وكأنه في ذلك يشرح القرآن

«اطلب هواه في خلاف هواك، ومحبتك في بعض نفسك» فإنه معروف

عند مخالفة الهوى، محبوب عند بفض النفس!

ويربط أبو يزيد بين الحب والمعرفة، ويجعل المعرفة من أسباب الحب

سبحان

«بحال أن تعرفه ثم لا تحبه».

إدما ما كانت المعرفة، فكان الحب، فإن الأمر يصبح كما قال أبو يزيد:

«إذا جاء حب الله يغلب كل شيء، لا حلاوة للديار، ولا حلاوة
للاخرة، الحلاوة حلاوة الرحمن».

أما كمال العارف - فيما يرى أبو يزيد - فإنه:

«أحترقه بحبه لربه».

وقبل أن تنتهي من الحديث عن أبي يزيد وحب الله ورسوله نقف وقفة
موضح فيها في شيء من التفصيل الجو الإسلامي في هذا للوضوح حتى
يكون واضحاً أمام الصوفية موقف الإسلام من ذلك، يقول الله تعالى
﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَرْوَاحُكُمْ وَعَشَرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ
اقتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَحْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ
وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ فَإِنَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الضَالِّينَ﴾

وفي معنى الآية الكريمة يروى الإمام البيهقي رضي الله عنه عن
عبد الله بن هشام قال: «كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو آخذ
بيد عمر بن الخطاب، فقال: والله يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل

شيء إلا من نفسي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يؤمن أحدكم
حتى أكون أحب إليه من نفسه؛ فقال عمر: فأنت الآن والله أحب إلي من
نفسى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الآن يا عمر».

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني: «الآن يا عمر وقد صار
الرسول صلى الله عليه وسلم أحب إليك من نفسك فقد استقامت أمور
الإيمان عندك وصرت إلى ما أحب الله ورسوله، ومحبة رسول الله صلى
عليه وسلم تتضمن - كشرط أساسى جوهرى - اتخذه صلى الله عليه
وسلم قدوة في السلوك والعمل والدرجة الجوهرية في القدوة به صلى الله
عليه وسلم إنما هي متابعتة في إسلام وجهه لله سبحانه وتعالى. لقد باع
رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه وماله لله سبحانه وكان أول البائعين،
وكان أمثل البائعين، وحقق بذلك، وحقق أصحابه ومن تبع هديه متأسين به
- قول الله تعالى ﴿إِنْ أَنْفِيتُمْ مِائَةَ مِائَةٍ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَرْحَمِ
الْجَنَّةِ يَمَاقِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ
وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ؟ فَاسْتَبَشِرُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ
الَّتِي بَارَكْتُمْ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(١) لقد اشترى في عقد الإيمان النفس
والمال بشئ هو الجنة فإذا بخل المؤمن بنفسه في سبيل الله فقد آخل بعه
الإيمان، وإذا بخل بماله في سبيل الله فقد آخل بعه الإعانة

وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذن إنما هو إظهار ما يحب وإتباع

هدمه والعمل بسنته في الإيجاب وإيثار كل ذلك على الآباء والأبناء وغيرهم بما يحبه الإنسان من أشخاص أو من أشياء وفي هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري رضي الله عنه: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين».

فحب رسول الله صلى الله عليه وسلم مرجعه إلى صفات كريمة سامية عليا غلبت فيه صلى الله عليه وسلم طيلة حياته، والآية الكريمة والأحاديث السريفة التي رويها تدل كلها صريحة على أنه إذا تعارضت أمور الدين مع المصلحة الشخصية أو مع أمور الدنيا فإنه يجب على المؤمن أن يؤثر أمور الدين على غيرها.

يقول الإمام الرازي: «إذا وقع التعارض بين مصلحة واحدة من مصالح الدين وبين جميع مهمات الدنيا وجب على المسلم ترجيح الدين على الدنيا».

أما بعد فيقول صاحب الكشف عن الآية الكريمة التي صدرنا بها هذا الحديث ما معناه:

وهذه آية شديدة لا ترى أشد منها كأنها تنمي على الناس ما هم عليه من راحة عقد الدين واضطراب حبل اليقين فليتنصف أروع الناس وأنقاهم من نفسه، هل يجد عنده من التصلب في داب الله وشبهت على دس الله ما يجعله يؤثر دينه على الآباء والأبناء والأخوات والعشائر والمال

والمساكين وجميع حظوظ الدنيا ويتجرد منها لأجله؟ أم أن الشيطان يخوبه من أجل حظ من حظوظ الدين، فلا يبالى كأنما وقع على نعمة ذهاب قطره ثم أما بعد: فإن الحب الصادق لله صلى الله عليه وسلم يتمثل في حقيقته في التزام صفاته صلى الله عليه وسلم في النفس والعمل على سيادتها في المحتتم.

وفي ختام هذا الموضوع نقول إن أبا يزيد مع كونه كان مسهلكا في حب الله ورسوله كان في غاية التواضع وغاية الشكر والامتنان، إنه يقول «ليس العجب من حبي لك وأنا عبد فقير، وإنما العجب من حبيك لي وأنت ملك قدير»

ونختم هذا الحديث بقول أبي يزيد

عرج قلبي إلى السماء، وطاف؛ ورجع، فقلت له: يمش جيت معك؟ فقال: المحبة والرضا.

الفصل الحادي عشر

الحجب

وصل أبو يزيد إلى القرب من الله تعالى، وهنا تكشف له أمور بعضها رآها حجباً، وبعضها أنزلها عن قيمتها التي يظن الناس أنها من النفاسة
ممكن.

ومن ذلك الزهد، يقول أبو يزيد:

«الدين للامة والآخرة للخاصة، فمن أراد أن يكون من الخاصة فلا
يشارك العامة في دنياهم»

وقال:

«إنما جعلت الدنيا مرآة للآخرة، فمن نظر فيها للآخرة سجا، ومن شغل
٢٠ عن الآخرة أطمعت مرآته وهلك».

وفيل لأبي يزيد: لماذا نلت هذه الدرجة؟ قال:

لاخرة وما فيها وليوم الثالث: زهدت فيها نور الله.

فلما كان اليوم الرابع ^{١١١}يقين لي سوى الله شيء مهمته فسمعت قائلا يقول: يا أبا يزيد لا عوى ممسا، فقلت يا أروث هذه الكلمة، فسمعت قائلا يقول لي: وجدت وجدت!

ويستمر ذو النون - في النهاية - ن 'لرهد حجب، فامرهد محجوب بزهدهم، ينظر إليه ويقنوه ويعتبره.

ولعل نظره إلى يزيد تلتقي في الرهد - زهد الراهقين لا زهد الصوريين - بنظرة ه بن سينا.

وإن سينا يقول عن زهد الراهقين:

«الزهد عند غير المعارف معاملة ما، كأنه يشتري الدنيا متاع الآخرة». وكلام ابن سينا يعني أن غاية الزهد - الذي ليس يعسوف - هو الاستماع عن طيبات هذا العالم أن يحصيه الله في الدار الآخرة طيبات إلى وأمتع، إنه كناجر يشتري يحتاج الدنيا متاع الآخرة.

أما الراهد المعارف - فيها يرى ابن سينا - فإنه

تنزه عما يشغل سوره عن الحق، وتذكر كل شيء غير الحق «أي أن زهد المعارف إنما هو سمو بنفسه عن كل ما شغله عن الله تعالى، وترفع عن الدنيا تلك التي لا تنأى عند الله جناح بعوضه

«سمعت أسناب الدنيا كلها تربطها بحبل القنوع، ووضعها في مصحف

معدن ورويت بها في بحر الإياس فاسترحتها»^١

ولكن أبا يزيد يصل بالزهد إلى أكثر من ذلك، إنه يقول: «ومن زهد في الدنيا فقد نهب عن قدرها من قلبه»

رسائل أبو يزيد أبا موسى قائلا: يا أبا موسى: عبد الرحيم في أي فن من فنون العلم يتكلم؟ - وكان عبد الرحيم هذا عالم بسطام - قلت: في لزهد في الدنيا، فقال:

وأرى قدر للدنيا، حق يحتاج أن يتكلم في الزهد فيها»^١

وقال أبو يزيد: أوقفني الله بين يديه، وقال:

«يا أبا يزيد: بأي شيء جنتي؟ قلت: بالزهد في الدنيا. قال: «إنما مقدار الدنيا عسوى جناح بعوضة، فقيم زهدت؟

قلت: إلهي أستغفرك من ذلك، جنت بالركل إليك، فقال:

«عند ذلك قبلته»^١

قال أبو حمص: سألت أبا يزيد عن الزهد فقال: ليس للزهد منزلة،

فعل ^١لاداء قال لاني كنت ثلاثة أيام زهدا فلما كان اليوم الرابع

خرجت منه ^١والت أو حمص وكبه ^١والله

قال: زهدت في أول يومى في الدنيا وما فيها، واليوم الثاني زهدت في

هـ لا مناص من العبادة، ولكن إذا نظر الإنسان إلى العبادة على أنها لله للتقدير فقد أصبحت حجاباً

ن العابد إذا رضى عن نفسه لأنه صلى مثلاً واعتبر صلاته من الأمور التى تضعه فى مكانة رابعة، فقد أصبحت صلاته حجاباً، أى أنها وإن سمطت عنه الغرض، وأكسبته حسنات فإنها - على لوصع الذى هو عليه لا تؤدي به إلى القرب. واهه سبحانه وتعالى يقول.

﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً﴾^(١)
إن النحاة بفضل الله ورحمته.

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها».

ويقول:

«لن يدخل أحدًا عمله الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال

(١) سورة البور: ٢١

ولا أنا، إلا أن يتعمدنى الله برحمته، فسددوا وقاربوا، ولا يتمنن أحدكم الموت؛ إما محسناً قطعله أن يزداد خيراً، وإما مسيئاً فلعله أن يستعقب».

وفى الآثار أنه كَانَ فيمن قبلكم رجل عبد الله خمسمائة عام، وحينما مات وحوسب وانتهى حسابه سمع النداء الإلهى: ادخلوه الجنة بفضل.. واعتقد الرجل أن دخول الجنة بالنسبة له إنما هو عدالة وليس فضلاً، وأعلن ذلك، فسمع النداء من جديد: أعيدوا الحساب.. وأعيد الحساب، ووزنت أعماله كلها فى مدى الخمسمائة عام فى مقابل نعمة البصر، فرجعت نعمة البصر، وبقيت سيئاته مدى الخمسمائة عام فى الميزان، فسمع النداء الإلهى من جديد: ادخلوه النار بعدلى.. وعلم الرجل خطأه فيستغث، ويرجو ويتضرع أن يدخله الله الجنة بفضل له ولعل ابن سينا يوضح الوضع لعبادة العابدين التى تختلف فى وضعها عن عبادة العارفين، إنه يقول:

«والعبادة عند غير العارف معاملة ما، كأنه يعمل فى الدنيا لأجرة يأخذها فى الآخرة هى: الأجر والثواب».

والعبادة على هذا النسق حجاب عن القرب

والحجاب الثالث: حجاب العلم

العلم الاشكلى الذى هو التعمق فى كلام المتكلمين وفى الجدل فى المشابه، العلم النظرى الذى لا يفيد العمل ولا يحفز على التزكية.

وإذا كان الله سبحانه قد مدح العلماء. وإذا كانت مكانة العلم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمكانة السامية فإنه العلم الذي لا يعرف عن الله، بل يقودنا إلى زيادة معرفة به. والواقع أن العلم سواء كان...
أوروثياً إنما هو زيادة معرفة الله لأنه يبين عن آثار صفاته، فبدأ ما يعتق في النفس الكبرياء والخلافة وأصبح العلم في مثل كبرياء إبليس يعلمه فإنه يطرد من رحمة الله.

وإذا أنتج العلم الخشية، فإنه ينتج القرب من الله تعالى: يقول سبحانه
﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(١).

ويتحدث أبو يزيد عن الحبيب، وعن المحبوبين فيقول

أشد المحبوبين عن الله ثلاثة ثلاثة:

فأولهم: الزاهد بزهده.

والثاني: العابد بعبادته.

والثالث: العالم بعلمه.

ثم قال: «مسكين الزاهد، قد أئس زهداً، وجرى به في ميدان الزهاد، ولو علم المسكين أن الدنيا كلها سماها الله قليلاً، فكم ملك من القليل، وفي كم زهد مما ملك؟ ثم قال:

(١) فاطر، ٧٨

إن الزهد هو الذي يلحظ إليه بلحظة، فيبقى عنده، ثم لا ترجع نظره إلى غيره ولا إلى نفسه.

وأما العابد فهو الذي يرى منة الله عليه في العبادة أكثر من العبادة حتى تعرف عبادته في المنة...

وأما العالم فلو علم أن جميع ما أبدى الله من العلم سطر واحد من اللوح المحفوظ، فكم علم هذا العالم من ذلك السطر، وكم عمل فيما علم؟

ويقول أبو يزيد: ليس للعبد خير من أن يكون أبداً فقيراً ليس معه شيء؛ لا التزهد، ولا التعب، ولا شيء من الأشياء فيعني عن الجميع، فإذا فني عن الجميع كان الجميع ورءاء.

وهناك حجب أخرى

يقول عبيد بن عبد القاهر: قال أبو يزيد البسطامي: «إن الله ليرزق عبده الخلاوة، فمن أجل فرحه بها يبعه من حقائق القرب.

والآن تذكر جملة من النصوص لأبي يزيد تزيد وجهة نظره وضوحاً وتشرح رأيه وتبين بعض الفروق بين العارف من جانب، والعابد والزاهد والعالم من جانب آخر.

العارف والعالم:

قال أبو يزيد:

«العارف يلاحظ ربه، والعالم يلاحظ نفسه»

وقال رحمه الله:

«اطلع الله على قلوب أوليائه، فمنهم من لم يكن يصلح لحمل المعرفة
صرفاً فتخلهم العبادة»

الراهد والعارف:

وقال أبو يزيد:

«العارف همه ما يأمله، والزاهد همه ما يأكله».

وقال:

«الزاهد يقول: كيف أصنع، والعارف يقول: كيف يصنع».

وقال أبو يزيد:

«إن الصادق من الزاهدين إذا رأته هبته، وإذا فارقت هـن عليك أمره،
والعارف إذا رأته هبته، وإذا فارقت هبته».

الزهد والعبادة والعلم حبيباً

وقال أبو يزيد:

«أشد المحجوبين من الله ثلاثة بثلاثة:

الزاهد يزهد، والعابد يعبدته، والعالم يعلمه»

ثم قال عقيب قوله:

«مسكن الزاهد قد تلبس الزهد، وجرى في ميدان الزهاد.

ولو علم قلة الدنيا وفي أي شيء زهد؟ وكم مقدار ما زهد فيه؟ وأين
يقع هو في الدنيا من الزاهدين؟ لما أعجب يزهد»

إن الزاهد الصادق يلحظ ربه فيبقى عنده فلا يرجع بطرفه إلى غيره.
وأما العابد الصادق: «فهو الذي يرى منة الله عليه في العبادة أكثر من
العبادة حتى تفرق عبادته في المنية».

وقال عن العارف والزاهد أيضاً:

«أمل الراهد في الدنيا الكرامات، وفي الآخرة المقامات وأمل العارف في
الدنيا بقاء الإيمان معه، وفي الآخرة العفو».

الفصل الثاني عشر

حِكْمٌ وَوَصَايَا

عن أبي موسى الديلمي قال: سمعت أبا يزيد البسطامي يقول:
«لذات الدنيا ثلاث: صديق واد، وصحبة ملك جواد، ومحالسة مفيد
ومفاد».

وقال أبو يزيد

«حسب المؤمن من عقله أن يعلم أن بالله غنى عن عمله».

وعن أبي صالح الخذاء مؤذن مسجد أبي يزيد قال:

كان أبو يزيد يقول: هلاك الخلق في شيئين: في ترك الحرمة ونسيان
المنة».

وقال أبو يزيد

الناس بحر عميق - والبهمة عنهم سمينة

وقد نصحتك فاختر لنفسك اسكنة

وقال أبو يزيد:

«طوبى لمن كان همه هماً واحداً ولم يشغل قلبه بما رأت عيناه، وسمعت أذناه»

وقال:

«حسب المؤمن أن يعلم أن الله غنى عن عمله».

وقال:

«لا عقوبة أشد من الغفلة، لأن الغفلة عن الله طرفة عين أشد من النار».

وقال:

«من نظر إلى الناس بعين العلم مقتهم، ومن نظر إليهم بعين الحقيقة عذرهم».

وقال أبو يزيد:

«لا يعرف نفسه من صحبتة شهوته».

وقال:

«من اختار الدنيا على الآخرة غلب جهله علمه، وفضوله ذكره، وعصيانته طاعته»

وقال:

«الدنيا لأهلها غرور في غرور، والآخرة لأهلها سرور في سرور، ومحبة الله لأهل محبته نور على نور».

وعن أبي يزيد قال:

«إن في الطاعات من الآفات ما لا يحتاجون معه إلى أن يطلبوا المعاصي».

وعن أبي يزيد قال:

«ما دام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر».

وقال رضى الله عنه:

«قال الله تعالى للكاثر: آمن، وللمنافق أخلص، وللعاصي ارجع، وللمحبيب ارض، وللعارف أبصر».

وقال:

«من نظر إلى الخلق بعين العلم مقتهم وهرب إلى الله عز وجل، ومن نظر إليهم بعين الحقيقة عذرهم، وكان طريقاً لهم إليه»

وقال:

«عند نسيان النفس ذكر يارئ النفس».

وسئل: من أين تأكل؟

فقال: مولاي يطعم الكلب والخنزير، أفترى أنه لا يحبه أباه يزيد؟

وصل خلف إمام الجامع فلما سلم الإمام قال:

يا أباه يزيد: من أين تأكل؟

قال:

وأصبر حتى أعيد صلاتك فأباك شككت في رزق المحرونة، ولا تحوز الصلاة خلف من لا يعرف الرزق»

ودخل الجامع فوقف على حلقة فقيه، فستل عن رجل مات وخلف كذا، فأخذ يصرح المسألة ويضرب الأعداد، فصاح به بأفقيه ما تقول فبهت مات ولم يخلف إلا الله؟

فيكي القوم وأبكوا، فقال:

«العبد لا يخلفك، وإذا مات لا يخلف إلا مولاه كما كان أولاً، فإن آخره يرجع إلى أوله، لأن أوله فرد ومعه الشهادة فإذا كان آخره كانه لم يرجع الله سواه».

فوقد جئتمونا فراعى كما خلفناكم أول مرة»

وأوصى أبو يزيد رضى الله عنه خادمه أباه موسى فقال:
«وأوصيك بأقياك على ربك أيام حساك بكليتك، ولا سهل عنه وسهوك

رسمته يقول:

«يرزق العبد الملاوة، فالفرسه به يمنه عن سقاتق العرب».

وقال: علامة الانتباه خلسة:

«إذا ذكر نفسه افتقر، وإذا ذكر حوبه استغفر، وإذا ذكر الدنيا اعتبر، وإذا ذكر الآخرة استبشر؛ وإذا ذكر المولى انتصر».

من اختار الآخرة على الدنيا: يقلب سكرته كلامه، وقره غناه؛ وهمه سروره؛ وقلبه بحبته؛ وسره قره، فتصير نفسه مقيدة بقيد الخلد، وقلبه أسيراً لحروف الفرقة؛ وسره مستأنساً بأنس الصحبة.

وقال:

«إن الله تعالى أمر المباد ونهاهم، فأطاعوه، فخلق عليهم خلقاً من خلقه، فتغلوا بالخلق عنه، وإن لا أريد من الله إلا الله».

وعن منصور قال: جاء رجل إلى أبي يزيد فقال: أوصني.

فقال له: انظر إلى السماء، فنظر صاحبه إلى السماء.

فقال له أبو يزيد: أنترى من خلق هذا؟

قال: الله.

قال أبو يزيد

«إن من خلقها لطلع عليك حيث كنت، فاحذره».

و رقب، حين ترصيكم يده، و به لا بد من لقائه، و الوقوف بين يديه،
و بت منول عن جميع أعمالك، فتشعر لذلك، و استعداد لمعدك؛ ولا تغفل،
و منه عن رعدة العنة، و تيفظ من نومة الغافلين، و ألق كتفك بين يدي
سيدك صباحا و مساء، و الزم ذكره، و احفظ خدمته، و أحسن ظنك به،
ولا تؤثر أحدا عليه، و اصبر على ما أصابك من البلاء، و ارض بحكم الله
و قصائه و قدره، و بحسن اختياره لعبده، و اقنع بعطيته و تقى به، و آمن لموعده،
و أيقن بوعده و وعده، و توكل على الحى الذى لا يموت، و اذكر الله؛
و استعن بالله فى كل أمورك، و احذر منه مادمت حيا، و اهرب من الخلق إليه؛
و موسى أمرك إليه».

و عن ابن الأنبارى يقول:

أراد صاحب لنا أن يسافر، فقال لآبى يريد: أوصى و صه؟
فقال: أوصيك بثلاث.

إذا صاحبك سيئ الخلق فأدخل سوء خلقه فى حسن خلقك حتى يهتك
العيش.

وإذا أنعم عليك منعم بنعمة فاشكر الله أبدا فإنه هو الذى أعطف
بالقلوب عليك

وإذا بدا عليك شيء من بلاء الله فأسرع الاستقالة منه، فإنه شيء
لا يعى متصير عليه».

و عن عيسى قال: كنت عند أبى يزيد قدس الله روحه فذكر عنده الجاه
و النفس.

فقال: يا أبا موسى:

«إن المؤمن بـلـانـفس». ثم قرأ: «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم».

«فمن باع نفسه فكيف تكون له نفس»؟

وسئل: متى يكون الرجل عاملا على معنى العبودية؟

فقال: إذا لم يكن له إرادة.

ف قيل: كيف يكون ذلك؟

قال: تكون إرادته و تقنيه و شهرته داخلية فى محبة ربه، ولا تتقدم له إرادة
فى شيء أبدا حتى يعلم إرادة الله عز وجل و محبته فيه.

الفصل الثالث عشر

من طرائف أبي يزيد

قال رضى الله عنه: «لو أذن لي في الشفاعة لشفعت أولاً فيمن أداى وجفانى، ثم فيمن برّنى وأكرمى».

وكان يقول: «الطريق تقتضى أن الشيخ لا ينسى أهل زمانه فكيف مريده المختص به؟ فإنه من فتوة شيخ الطريق ومعرفته بالنعوس: أنه إذا كان يوم القيامة وظهر ما لهم من جاء عند الله خاف منهم من آذاهم في الدنيا، فأول ما يشفعون فيمن آذاهم».

قال ابن عربى: هذا نصه، وهو مذهبنا فإن الذين أحسنوا إليهم يكفهم عين إحسانهم، فهم بإحسانهم شفعاء أنفسهم عند الله بما قدموه في حق ذلك الولي.

وقال - الناس يفرون من الحساب وأنا أتمناه لعله يقول لي: يا عبدى، فأقول لبيك، ثم بعد ذلك يفعل بي ما شاء».

وقال له: «علمي الاسم الأعظم؟ قال: ليس به حد محدود، وإعما هو فراع قلبك له حدانته. فإذا دلت كذلك فارجع إلى أي اسم تسير به من المشرك إلى المشرق».

وسئل عن: «الله الأعظم فقال: قل لا إله إلا الله وأنت هناك ثابت؛ فقل له كذا؟ قال: نعمه إذا ذكرته».

وبلغنا أنه قال له: أنت من أس؟

قال: أنا - ليل. ومن ليل أنا

وسئل ما به المعارف؟

فقال: «إياك إذا دخلت مربة أفسدوها، وجعلوا أعره أهلها أدلة».

وقيل له: ارمسى المعارف؟ فقال

«وكان أمر الله قدرًا مقدورًا».

وقال ابن عربي: وهذا غاية في النجس حيث لم يقل نعم، ولا لا. وهذا من كمال حاله وعلمه وأدبه، وصبره الله عنه.

وقال له دسر: متى على عمر أتقرب به إلى الله؟

قال: أحب دسر: «ليحبوك فيه دسر في قلوبهم، فلهذه ينظر إلى اسمك في قلب وليه دسر».

وسمعه يقول

وحدث أن الله تعالى جعل الدنيا لقمة واحدة، فأعطانيها حتى أبيت بين يدي كلب. حتى لا يفتر به الخلق، ولو عذبني في نار جهنم مكار خلق جميعًا لما كان مني بكبير بما ادعيت أن أحبه، ولو غفر لجميع الخلق، كان منه بكبير حيث قال:

«إني على الخلق رهوف رحيم».

وقال: ما دام العبد يظن في أسلمين من هو شر منه فهو مكبر.

وسئل متى يكون الرجل متواضعًا؟

فقال إذا لم ير لنفسه مقامًا ولا حالًا، ولا يرى أن في الخلق من هو شر منه

وقال: سمعت المتقدمين قالوا:

إن ليلة من الليالي بكى صبي لمجوس في جواره، ولم يكر، معهم السراج، فرفع السراج إلى كوتهم حتى سكت صبيهم، فرأوا شفقتهم معالت أم الصبي لأبيه.

- وقد غاب حين بكائه - لما حضر: ألا ترى إلى شفقة ابن مسمى سروشار، وقد فعل مثل هذا؟

فمعجب من شفقتهم، ودعت بركة شفقتهم عليهم أن أسلموا عن أمرهم.

ومن طرائفه في الورع أنه:

بعد الجامع يوم الجمعة للصلاة وقد جاء المطر من قبل، وكان وجلاً،
فرلفت رجله، فاستند إلى جدار حائط، فأمسك نفسه بسببه، ويبدو أن
بعض التراب من الحائط قد تفتت.

فلما ثبت تفكر في ذلك وقال في نفسه: تفحصي عن صاحب الجدار
ليجعلنى في حل مما تعاطيت وقصلت خير لى من أن أمضى إلى المسجد فإن
ذلك لا يفوتنى، ففى الوقت سعة، فأنصرف وتعرف عن صاحب الجدار،
فقبل: مجوسى، فتقدم إلى باب داره وناداه. فخرج إليه فأخبره بالقصة
وطالبه أن يجعله في حل من ذلك

فقال المجوسى: ولكم في دينكم الدقة وكل هذا الاحتياط؟

أمنت بالله وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم آمن وآمن كل من في
داره ببركة ذلك الفعل.

وقال محمد بن أحمد المذكر: حكنا أن أبا عبد الله رضى الله عنه بكه أن
فلاناً المجوسى جاره قد مرض، فدخل عليه عائداً، فلما بهر المجوسى
بأبى يزيد فأزال رأسه من فراشه، ووضع حده على التراب نظيفاً وإحلالاً
لأبى يزيد.

قال: فلبث ساعة، ثم قام منصرفاً، فلما توسط الدار رفع أبو يزيد طرفه
إلى السماء كأنه سأله فيه، لما بلغ الدهليز إذا ببعض أولاد المجوسى جاء

على إثر أبى يزيد يقول: إن أبى يقول

بحق الله عليك لا أنصرفت، فما أنصرف، فقال:

«يا أبا يزيد، أعرض عن الإسلام، فعرض عليه فأسلم، وقضى
المجوسى مكانه، فقام أبو يزيد بأمره حتى دفنه».

وقال أبو موسى الديبلى: سمعت رجلاً يسأل أبا يزيد فقال:

دلى على عمل أنتقرب به إلى ربى؟

قال: أحب أولياء الله ليهبوك، فإن الله تبارك وتعالى ينظر إلى قلوب
أوليائه في كل يوم وليلة سبعين مرة، فلعله أن ينظر إلى اسمك في قلب وليه
فيفقر لك.

وعن الحسن بن على يقول قال أبو يزيد:

المعرفة في ذات الحق جهل، والعمل في حقيقة المعرفة جنائية، والإشارة
من المشير شرك في الإشارة.

وكان رضى الله عنه إذا رأى الناس يتمسحون بمرقعته تبركا فلاموه على
ذلك، فقال:

هم لا يتبركون بى إنما يتبركون بخلة ربي التي خلعتها على

وسئل أبو زيد فقيل له:

إن الناس يقولون: إن شهادة أن لا إله إلا الله مفتاح الجنة؟

قال. صدقوا، ولكن لا يفتح المفتاح بغير أسنان، وأسنان مفتاح الجنة
أربعة أشياء:

لسان بغير كذب ولا غيبة، وقلب بغير مكر ولا خيانة، وبطن بغير حرم
ولا شبهة، وعمل بغير هوى ولا بدعة.

الفصل الرابع عشر الكرامات

سبق أن كتبنا عن الكرامات ما يلي

١ - أن القرآن الكريم يحدثنا في أسلوب لا لبس فيه عن المعجزات
التي تفضل الله بها على رسله وأنبيائه.

ويحدثنا سبحانه عن الكرامات التي منحها سبحانه لأوليائه وأصفياه.
ألم يحدثنا القرآن بصورة لا تحتمل التأويل بأن عيسى عليه السلام كان
يخلق من الطين كهينة الطير فيمنح فيه فيكون طيراً يودن الله، وأنه يرى
الأنكم والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله؟ ألم يحدثنا عن سيدنا موسى بأنه
ألقى عصاه فإذا هي تنفث ما يأفكون وبأنه أخرج يده فإذا هي بيضاء
للناظرين؟ وسدنتنا مريم ألم تحمل بسيدنا عيسى من غير أن يحرقه بذلك
مواهب الطبيعة، وكانت كما دخل عندها ركبوا المحارب وجد عندها رزقاً.
قال يا مريم أفي لك هذا؟

قالت هو من عند الله!

٢ - ثم إن ما نسميه قوانين الطبيعة إنما هو في الواقع «عادات» الطبيعة.

وخرقها ليس بمستحيل عقلا

وخرقها لا يترتب عليه مستحيل!

وعادات الطبيعة لا تسيطر على رب الطبيعة!

٣ - ثم إن هؤلاء الذين تجرى على أيديهم المعجزات أو الكرامات لا ينسبونها إلى أنفسهم، وإنما ينسبونها إلى المتفضل الوهاب صاحب العدة والقهر، إنهم ينسبونها إلى من هو على كل شيء قدير!

٤ - والملاحظ في منكرى الكرامات على مر العصور أنهم يتميزون بألوان من الغلظة وقساوة القلب فلا تجد فيهم رقة شعور ولا صفاء البصيرة، ولا ملائكية الروح وهم - إن لم يكونوا من الملاحدة - من الصنف الذي لم يخالف الاعاد شفاف قلعه، إنما بقى صورة حائكة على السطح.

٥ - جمهرة المسلمين على مر العصور، عامتهم، وخاصتهم وقممهم الشوامخ في العلم والدين من الذين يثبتون الكرامات ويؤمنون بها هذا عن الكرامة عادة من حيث حدوثها ووقوعها

وتحدث أبو يزيد عن الكرامات من حيث تصدر من أسباء الله سبحانه فيقول:

حفظ كرامات الأولياء على اختلافها تكون من أربعة أسباء،
لأول، والآخر، والظاهر، والباطن - وكل فريق له منها اسم، فمن منى عنها بعد ملابتها فهو لكامل التام!

فأصحاب اسمه الظاهر يلاحظون عجائب قدرته!

وأصحاب اسمه الباطن يلاحظون ما يجري في السرائر!

وأصحاب اسمه الأول شغلهم بما سبق!

وأصحاب اسمه الآخر متربصون بما يستقبلهم!

فكل يكشف على قدر طاقته إلا من تولى الحق تعالى تدبيره! وقال أبو موسى الديلمي:

سأل رجل أبا يزيد عن المشي في الهواء فقال:

«إذا طابت نفس الرجل بقلبه مطرت قلبه بعسن ظنه بربه وصح ظنه بأرادته، واتصلت بمشيئة خالقه قضاء بمشيئة الله ونظر بموافقة الله، وترفع قلبه برفعة الله، وتحركت نفسه بحركة الله، وصار حيثما شاء هذا العبد بمشيئة الله تعالى، ونزل حيث شاء الله في كل مكان عليا وقدره، فهذا العبد كان معه في كل مكان، ولا يخلو عنه مكان، فإذا كان هذا العبد مع الله فلا

البيت يتر في الهواء، الموقن أشرف من طير:

وليس الكرامات بعجبة، إنما العجيب شيء آخر أسعى من الكرامات،

يقول أبو يزيد:

«كم من خلق الله يحشى على الماء وفي الهواء وليس عند الله كبير مقداره،
وليس ذلك بعجبة؛ إنما العجيب أسرار قلوبه وأرواؤه التي لم يطالع عليها
أحمد الملاذكة»

قال الحسن بن عليّة - خرج أبو يزيد لزيارة أخ له مبلغ فلما وصل إلى
نهر جيحون - يعني بعد قصده الرجل الذي سكن - مبلغ وراء مبلغ -
التقى به حافقاً النهر فقال:

«سيدى! - أيش هذا المكر الملقى؟ وعزتك يا عزيزى ما عندك لهذا،
وعزتك ما اردت هذا؟ ثم رجع ولم يمر»

وقد صلى أبو يزيد البسطامي ليلة فاضاه البيت كأنه نصف النهار فقال
أبو يزيد: «إن كنت شيطاناً فأنا أعز وأمنع جانياً من أن تطمع في» وأن
كان من عند الله فأنى أسأله أن يخرجه من دلو الخدمة إلى محل الكرامة»

ومن ذلك: أن أبا يزيد بلغ دجلة بغداد، فانقضت الدجلة بعضها إلى
بعض كرامة له، فجلس أبو يزيد وقال:

«أنا أحمل من هذا الجانب إلى الجانب الآخر يأتى رأى» أرح عسر
ثلاثين سنة في هذا المدينة بدأتها

عزل عنه مكانه، وإذا لم يكن مع الله فليس هو في مكان... نفس الرجل
متصل بقلبه

وقلبه متصل بقلبه، وقلبه متصل بأرادته، وأرادته متصلة بعيشة الله
تعالى... قال الله تعالى في حديث قدسى: «أنا عند ظن عبدي بي». فإذا
كان الله عند ظن المبد إذا ظن، فكان المبد حيثما كان الله، كما أن الله
لا يحلو عن المبد حيث كان المبد، كذلك المبد لا يحلو عن الله بالله حيثما
كان الله... الله لا يحلو عن مكان دون مكان، فإذا صح حسن ظن المبد
بأنه وقع ظنه بربه، وقلبه بقلبه، ونفسه بقلبه فصار من حيث يشاء إلى حيث
شاء بعيشة الله، وبأنه كل شيء هو على مكانه بلا غناء، بأنّه المشرق
والمغرب كله، فكما ظن بكان فاماكان يحضره وهو لا يحضر المكان إذ هو
لا يزول ثم لا يزول، إذ هو مع من لم يزل ولا يزال، إذ هو من هو لم يزل
ولا يزال، فافهم ذلك... تنبّه لأشياء ولا يتبع شيئاً إنما الأشياء كلها كانت
من الله... ولكن أبا يزيد إذا كان قد علل الكرامات وسرها فإنه لا يعبأ
بها؛ بل يقلل من شأنها بل يصل به الأمر إلى التمهيز منها إذ يقول:

«الأولياء لا يفرحون بأجابة الدعوات التي هي عين الكرامات كالشيء
على الماء والهواء، وطوى الأرض، وركوب السماء؛ فإن أدعية الكفار نجاب،
والأرض تطوى للشياطين والدجال، والهواء مسخر للطير، والماء للحوت،
فمن أنعم عليه شيء - بها فلا يأمن المكر».

وقال له رجل: يلقى أنك تترقى الهواء، فقال: أى عجب منه: طير يأكل

بعض: إلى لا تروقع منك شيئاً آخر دون الكرامة لأرضي منك بغيرك!

ماذا كان يريد أبو يزيد؟

إنه يقول: «أوقفني الحق بين يديه موافق في كلها يرض على المملكة فيقول: أريد التصف؟ قلت لا.

قال: الطرف؟ قلت لا. قال: الغرف؟ قلت: لا.

قال حاريد؟

قلت أريد ألا أريد فإنيك المراء وأنا المرید.

قال ل: أنت عبي حقا!

خاتمة

في تقدير أبي يزيد

إن كبار الصوفية قدروا أبا يزيد تقديرًا كريماً، وأضفوا عليه مستندين إلى سيرة - صفات سامية سواء أكان ذلك من ناحية سلوكه، أم كان من ناحية آرائه وأفكاره، وكلهم أقرروا باستغراقه في الشعور الرباني، وتذكر هنا بعض كلامهم في ذلك، يقول صاحب الحلية:

«و منهم الثامن الوحيد، الماتم المريد، البسطامي أبو يزيد: تاه فغايبه وعلم غايبه، غاب عن المحدودات إلى موجد المحسوسات والمحدومات؛ فارتق الخلق، ورافق الحق فأيد بإخلاء السر، وأمد باستيلاء البر، إشاراته هائلة وعباراته كامنة، لما فيها ضامنة، ولذكرها فائنة.

ويقول صاحب الكواكب المبرية:

«أشهر من أن يذكر، وأعرف من أن يعرف. كان غمرة رياه سالا وأنفاساً وروحاً وعلماً وزهداً وافتقاراً وإيناساً وناعيةً يقول الخوانساري:

عليه وسلم، وإنما رأى «يتيم أبي طالب» ولو رآه - صلى الله عليه وسلم -
لم تحرقه النار.

فهم السلطان كلاله، وأعيبه هذا الجواب منه... أرى أنه لم يره
بالمنظّم والإكرام والأسوة، واعتقاد أنه رسول الله، ولو رآه بهذا المعنى لم
تحرقه النار.

والمعنى الذى أرادَه أبو يزيد بقوله: «من زارنى لا تحرقه النار» واضح
كل الوضوح وذلك أن أبا يزيد يقول: «إن من تقصى آثارى، وعمل على
حسب مارسمتى، واتبع السبيل الذى سرت فيه ودفعه لطلب لزيارتي فإن
النار لا تحرقه».

والمعنى الذى أرادَه أبو يزيد أيضًا من وراء ذلك، أنه سار في حياته
بحسب الكتاب والسنة، وأسس سلوكه وأقواله، حتى هدى القرآن والسنة
وأنه اعتد رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوة وأسوة في السلوك والأحوال،
وأن كل من سار على ذلك فهو بفضل الله في رحمة الله، وفي رضوانه، ومن
كان كذلك لا تحرقه النار..

وقيل: «أبو يزيد» بالكتاب والسنة معروف مشهور، ومن بيان ذلك:
أنه قال مرة لأحد جلسائه: «قم بنا حتى ننظر إلى هذا الرجل الذى قد
شهر نفسه بالولاية» وكان رجلاً مشهوراً بالزهد...

يقول رفيق أبي يزيد: فحضينا إليه، فلما خرج من بيته ودخل المسجد،

هو سلطان المارونية؛ وكان ابن عربى يسميه: أبا يزيد الأكبر ولقد
تحدث عنه الإمام ابن عربى كثيراً في كتبه ومن ذلك قوله:
ومن الأقطاب من يكون ظاهراً لحكم ويحوز الخلافة الظاهرة كما حاز
الباطنة من جهة المقام كأبى بكر، وعمر وعثمان وعلى وعمر
ابن عبد العزيز.

وممن من له الخلافة الباطنة خاصة ولاحكم له في الظاهر، كأبى يزيد
انتهى.

أما التقدير الذى ذهب أن نختم به فهو ما يلى:

يرى ابن عطاء الله السكندرى في شرحه لتفسيره حول الله أبى مدينه
القصة التالية:

زار بعض السلاطين ضريح أبى يزيد - رضى الله عنه - وقال: هل هنا
أحد من اجتمع بأبى يزيد؟

فأشير إلى شيخ كبير في السن، كان حاضراً هناك...

فقال له سمعت شيئاً من كلام أبى يزيد؟ فقال نعم، سمعته قال:

«من زارنى لا تحرقه النار» فاستغرب السلطان ذلك الكلام، فقال:

كيف يقول أبى يزيد ذلك، وأبو جهل رأى التى صلى الله عليه وسلم،
وتحرقه النار؟ فقال ذلك الشيخ للسلطان: «أبو جهل لم ير التى صلى الله

رمى ببصاقة تجاه القبلة، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه وقال:
«هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم،
فكيف يكون مأموناً على ما يدعيه».

إن «أبا يزيد» لم يكن يحتمل أن يخالف إنسان أدباً من آداب رسول
الله، صلى الله عليه وسلم.

ومن المعروف: أن الصوفية يتخذون مثلهم الأعلى وأسوتهم الحسنة
رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنهم يتحرون جميع أمور - السير منها
والعظيم - ليسهروا على هديه، ويتبعوا سنته في جميع أحواله.

ويضع «أبو يزيد» للمريدين والسالكين مقياساً دقيقاً لمعرفة الشيخ، إنه
يقول:

«لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات، حتى يرتقى في الهواء فلا
تفتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود وأداء
الشريعة».

وقال أبو يزيد:
«لا يكون العبد عاملاً على معنى العبودية، حتى تكون إرادته وأمنيته
وشهوته تابعة لمحبة الله».

هذا التمسك من «أبي يزيد» بالشريعة هو الذي جعل منه إماماً وعلماً
من أعلام السلوك الإسلامي، وجعله يقول:

«من زارني لا تحرقه النار».

وكانه به يقول:

إن من اقتدى برسول الله صلى الله عليه وسلم كتب الله له النجاة،
وإن اقتديت بسيدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأدعو الناس جميعاً
إلى الاقتداء به ليكتب الله لهم النجاة.

والحمد لله أولاً وأخيراً وأصلى وأسلم على سيدنا رسول الله صلى الله
عليه وسلم.

محتويات الكتاب

صفحة	
٧	: المقدمة
١٣	: الفصل الأول : حياة أبو يزيد
٣١	: الفصل الثاني : أبو يزيد والعلم
٤٩	: الفصل الثالث : أبو يزيد والتزام الشريعة
٥٩	: الفصل الرابع : أبو يزيد والشطح
٦٣	: الفصل الخامس : أبو يزيد العابد
٦٩	: الفصل السادس : أبو يزيد والجهاد في سبيل الله
٨٥	: الفصل السابع : الوصول
١٠١	: الفصل الثامن : أبو يزيد والتصوف
١١٩	: الفصل التاسع : الصوفية والتوكل على الله
١٣١	: الفصل العاشر : أبو يزيد والحب
١٣٩	: الفصل الحادي عشر : الحجب
١٤٩	: الفصل الثاني عشر : حكم ووسايا
١٥٧	: الفصل الثالث عشر : من طرائف أبي يزيد
١٦٣	: الفصل الرابع عشر : الكرامات
١٦٩	: خاتمة : في تقدير أبي يزيد
١٧٤	: المراجع

المراجع

المنافى	: الكواكب الدرية.
الشعراني	: الطبقات الكبرى.
السراج	: اللع.
السلمى	: طبقات الصوفية، القاهرة سنة ١١٥٣، ص ٦٧-٧٤.
أبو نعيم	: حلية الأولياء ج ١٠ ص ٣٣ - ٤٢.
القشيري	: الرسالة.
المجويزي	: كشف المحجوب.
عبد الرحمن بدوي	: شطحات الصوفية (١) أبو يزيد البسطامي، القاهرة سنة ١٩٤٩.
ابن الجوزي	: تليس إبليس.
ابن خلكان	: دائرة المعارف الإسلامية. طبعة بولاق سنة ١٢٧٥ ج ١ ص ٣٣٩.

AL-MOSTAFA.COM